جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله.

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

قسم الفلسفة.

أثر الفكرة الدينية في النهضة الحضارية عند مالك بن نبي

مذكرة مكمّلة لليل درجة الماجستير في الفلسفة

إعداد الطالب:

أعراب كمال

إشراف:

الأستاذ الدكتور عمار طالبي.

السنة الجامعية: 2014-2015.

جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله.

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية.

قسم الفلسفة.

أثر الفكرة الدينية في النهضة الحضارية عند مالك بن نبي

مذكرة مكمّلة لليل درجة الماجستير في الفلسفة

إعداد الطالب:

أعراب كمال

إشراف:

الأستاذ الدكتور عمار طالبي.

السنة الجامعية: 2014-2015

كلمة شكر

لا يفوتني أن أتقدم بشكري الجزيل إلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد لإتمام هذا العمل، وخاصة عائلتي الكريمة.

كما لا أنسى أن أنوّه بفضل صديقي الأستاذ "وعلي إبراهيم" الذي ما فتئ يذكّرني بضرورة إتمام ما شرعت فيه منذ أكثر من عشر سنوات، ولم تسمح الظروف بإتمامه، فله جزيل الشكر.

دون أن أغفل عن صبر أستاذي المشرف الدكتور "عمار طالبي" وسعة باله، ودماثة خلقه، كل الشكر سيدي، وكل التبجيل والوقار، ثمّ إني أعتذر كل الاعتذار على تقصيري.

الإهداء

إلى المعلم الأول –النبي محمّد صلى الله عليه وسلم-.

إلى روح مالك بن نبي، صاحب الفكر الثاقب، والضمير الحي، والروح الطاهرة، والهم الحضاري، في مجتمع الاستهلاك والتكديس.

إلى الكريمين الرحيمين أبي وأمي.

إلى شريكة حياتي وأم ابنتي زوجتي، إلى رمز البراءة ابنتي أسماء.

إلى كل أفراد عائلتي (إخوتي وأخواتي)، وإلى روح جدتي رحمها الله.

إلى كل من أحبّهم ويحبونني.

إلى من ينشد الحق والعدل ولو على حساب هواه، أهدي هذا العمل.

مقدمة

مقدمة:

إنّ واقعنا يفرض علينا أن نرتقي إلى مستوى الحضارة، بعد أن مرت علينا ثمانية قرون كاملة ونحن على هامش الحضارة، بل لقمة سائغة للإنسان المتحضر؛ نظرا لما نحمله من خصائص نفسية واجتماعية ورثناها عن إنسان ما بعد الموحّدين؛ من غياب الفعالية، والاستلاب، والقابلية للاستعمار، والسلبية في كل شيء، والذرية في التفكير. ولكن الارتقاء الحضاري لابدّ له من انطلاقة بعد سكون، ويقظة بعد نوم، وإقلاع بعد ركود، وحركة ودفعة خلاّقة، ولابدّ لهذه الدّفعة من دافع، ولهذه الحركة من طاقة محرّكة. ولأنّ الإنسان هو مفتاح الحضارة ومحورها وصانعها، فإنّ الانطلاقة تكون منه، لا بدّ من تصور جديد للإنسان، أو بالأحرى لابدّ من تجديد التصوّر الإسلامي للإنسان؛ التّصور الذي يقوم على الإيمان بالفكرة الدينية (الطاقة الروحية، الفكرة الخلاقة، المجدّدة)، والاهتمام بالعقل وبعالم الأفكار، "فلا يمكن للإيمان أن يتجذّر في النفس دون حضور العقل، ولا يمكن بناء الأفكار وتجسيد العقل -في التاريخ- دون أن يستمد نوره من الإيمان، على نقيض أطروحة ألبيركامو التي يرى فيها أنّ "الإيمان يظهر حيث يغيب العقل."[1]

إنّ الفكرة الدينية -كما يؤكد طارق رمضان- تدخل في بنية الوعي البشري، في ماهيته، إنّها تعبّر عن فطرته، إنّها الدّافع والشعلة، وهي التي تنفخ في روحه الحياة، فتنقله من إنسان ما قبل الحضارة إلى إنسان الحضارة والإبداع، من إنسان الغريزة إلى إنسان الضمير والفكر، من التكديس إلى البناء، من الفردانية إلى الوحدة الاجتماعية، من العقلية الذرية إلى العقلية التركيبية، من عالم الأشياء إلى عالم الأفكار، من التّوحّش إلى التّمدّن، من الاستهلاك إلى الإنتاج، من المطالبة بالحقوق إلى الالتزام بالواجبات.

1- Tariq Ramadan : « foi et Raison ». El Borhane, 2014 P 06.

إنّ الإيمان هو البحث عن النهايات، وعن معنى الحياة –كما يقول روجي غارودي- [1] ولكن المفارقة أنّ الإنسان المتحضر اليوم، و هو الإنسان الغربي-على محور واشنطن موسكو- منقطع عن الله، و جعل نفسه "مقياس كل شيء" -بتعبير السوفسطائيين- إنه يكتفي بنفسه و لا يحتاج إلى فكرة متعالية، و قد أقام لنفسه نظاما فكريا يقوم على استقلاليته وتجرده من كل الأبعاد التي تجعل منه إنسانا يتميز عن الحيوان، كإقصاء البعد الجمالي، وإقصائه للحب وللعلاقات الإنسانية. ثمّ إنّه يقوم أيضا على الفعالية البراغماتية، والإيمان بالعلم، والمنهج الوضعي.

إنّ الفكر الغربي يقوم على تقديس العقل، فلا الحب ولا الجمال، ولا معنى للحياة أو الموت، كلّ ما يهمّه السيطرة على الطبيعة وعلى الإنسان. لكن الإنسان الغربي هو المنتصر، إنّه لا يبالي إلاّ بإرادة القوّة و إرادة التقدّم[2]. إنّه الإنسان المتحضّر، المنتج للأفكار، المبدع للثّقافة، وفي المقابل نجد إنسانا آخر -على محو طنجة جاكرتا- تحكمه قيم أخلاقية سامية مفارقة، ينظر إلى الإنسان كذات لا كموضوع، كروح لا كجسد، كأخ لا كعدوّ، تغذيه الفكرة الدينية التي تؤسّس لعلاقات إنسانية نبيلة، ومع ذلك فهو متخلّف، سلبي، غير منتج، تابع، مستعمر أو فيه القابلية للاستعمار. إذن فأين الخلل؟

إذا كانت الفكرة الدينية هي الدافع إلى الحضارة، بل هي الضامن لاستمرار هذه الحضارة، فلماذا لم تنطلق الشعوب التي تغذيها هذه الفكرة؟ ولماذا تقدّمت الشعوب الغربية رغم إقصائها لكل ما هو مفارق متعالي، بحجّة أنّ الإنسان هو مقياس كل شيء، وسيادة المنطق الديكارتي والمنهج الوضعي والعقلية البراغماتية؟

1- روجي غارودي، كيف صنعنا القرن العشرين، ترجمة ليلى حافظ، دار الشرق –القاهرة- الطّبعة الثانية 2001ص11.

2-Roger Garaudy, Biographie du xx siécle, El Borhane 1992, p 178.

سأحاول في هذا البحث المتواضع أن أجد لهذين السؤالين المحوريين إجابة، من خلال معالجة أستاذنا الكبير "مالك بن نبي" لمشكلة التّخلف، بالخصوص في المجتمعات الإسلامية، والتي يلخّصها في مشكلة الحضارة، ومشكلة الحضارة محورها الإنسان، إذن فإنّ المشكلة هي مشكلة إنسان توجّهه أفكار.

وقد ارتأيت أن أقسّم بحثي هذا إلى:

مدخل، فصلين، وخاتمة.

-المدخل: عرضت فيه:

*__أوّلا__:-نبذة مختصرة عن حياة مالك بن نبي ومسيرته الفكرية.

*__ثانيا__: -تحديد المفاهيم المفتاحية: الدين- الحضارة- الثقافة- الإيديولوجية.

-__الفصل الأول__: *شروط النّهضة الحضارية وموقع الفكرة الدينية فيها:

*__أولا:__ شروط النهضة.

*__ثانيا__: الدورة الحضارية.

*__ثالثا__: دور الفكرة الدينية في البناء الحضاري.

-__الفصل الثاني__: مشكلة التّخلّف الحضاري في العالم الإسلامي.

*__أوّلا__: مفهوم التخلف عند مالك بن نبي ومظاهره.

*__ثانيا__: أسباب التخلف الحضاري في العالم الإسلامي عند مالك بن نبي.

*__ثالثا__: الإسلام والتّجديد الحضاري.

*__رابعا__: الوظيفة الحضارية للمسلم المعاصر في ظل تحدّيات العولمة.

*__الخاتمة__: نتائج البحث.

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أحيي مفكّرا عظيما لم نعطه حقه من العناية، فقد كان يتنفس الأفكار، وقد وصف لنا الدكتور عمار الطّالبي ندوة مالك بن نبي في القاهرة، والتي كان يحضرها -حينما كان طالبا- قائلا: "استيقظ ذهني على المشكلات الجوهرية واتجه اتجاهها،

لم توجّهه إليه الجامعة التي كان يدرس بها، فكانت تجري المناقشات الحية، والتّحليلات الدقيقة، وتوضع المشكلات على أسس علمية، في رحاب واقعي وعقلي، فاستيقظت عقول، وتنبهت أذهان، وبرزت حقائق."[1]

1- د/عمار طالبي، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة-الثقافة، الجزائر: العدد 38، أفريل- ماي 1977، ص11- نقلا عن الدّكتور مولود عويمر "مالك بن نبي رجل الحضارة"، دار الأمل للطّباعة والنّشر ص22.

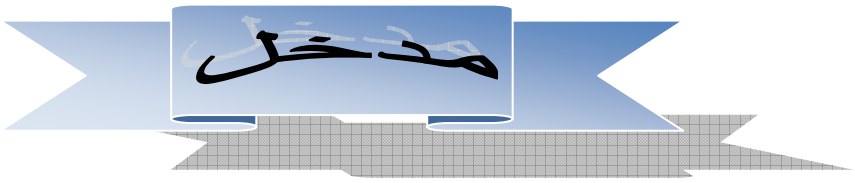
مدخل

أوّلا:

*__نبذة عن حياة مالك بن نبي ومسيرته الفكرية__:

لقد تناول مفكّرنا الكبير مالك بن نبي في كتابه "مذكّرات شاهد القرن" قصّة حياته في مرحلتين: مرحلة الطّفولة والشّباب، وتمتدّ من **1905** إلى **1939**، أمّا مرحلة الإبداع والعطاء فإنّها مخطوطة لم تطبع بعد – حسب الرّوايات-[1]

*__مولده ونشأته__: ولد مالك بن نبي في الأوّل من جانفي **1905** في قسنطينة، من أسرة فقيرة، انتقلت بعد ذلك إلى تبسة حيث تابع فيها دراسته الابتدائية وحفظ شيئا من القرآن. كان مولعا منذ صغره بمطالعة كتب الفكر والأدب والدين والتاريخ، فقرأ في شبابه مؤلّفات كبار المؤلّفين الغربيين والإسلاميين، كجون ديوي، كوندياك، محمّد عبده، أحمد رضا، الكواكبي، ابن خلدون الخ...

ولقد كان لصديقه حمودة بن الساعي دور كبير في اتجاهه كاتبا متخصّصا في شؤون العالم الإسلامي – كما اعترف هو بذلك- [2]

كما أثّرت في مفكّرنا الحياة الاجتماعية والثقافية السائدة في تبسة وقسنطينة، فكانت المقاهي هي ملتقى الأفكار. واصل بن نبي دراسته الثانوية في قسنطينة حتى تخرّج سنة **1925**. انتقل إلى باريس سنة **1930**، حيث التحق بمدرسة المهندسين، بعد أن رفض طلب التحاقه بمعهد الدراسات الشرقية. تزوّج سنة **1931** بامرأة فرنسية، أسلمت وسمّت نفسها خديجة. كان لمالك بن نبي في فرنسا نشاطه السّياسي، فقد شارك في نشاط "نجم شمال إفريقيا"، وجمعية الطّلبة المسلمين لشمال إفريقيا، وجمعية الوحدة العربية السرية، فصار مراقبا من الاستعمار.

1- د/ مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة ص 11.

2- مالك بن نبي، مذكّرات شاهد القرن،ترجمة د/عبد المجيد النّعنعي وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر -الجزائر- الطّبعة الثانية 1984 ص 235.

تعرّف - وهو في فرنسا- على نخبة من الطّلبة العرب، صاروا بعدها علماء ومفكّرين كبار، كمحمّد عبد الله دراز ومحمّد المبارك.

تخرّج مهندسا كهربائيا سنة **1935**، فعاد إلى الجزائر يساعد الشيخ العربي التبسي في نشاطات نادي الشّبيبة الإسلامية. استدعي إلى مرسيليا سنة **1938** ليشرف على نادي المؤتمر الجزائري الإسلامي للثّقافة، لكن السّلطات الفرنسية أوقفته، فعاد إلى الجزائر. غادر الوطن مرة أخرى سنة **1939** ليستقر في باريس إلى غاية سنة **1956** [1].

❁**اتّصاله بجمعية العلماء**: تعرف مالك بن نبي على جمعية العلماء عن طريق مجلة الشهاب؛ لكنه التقى بالشيخ بن باديس مرتين عام **1928**بقسنطينة و عام **1936**بباريس؛كان يحلم أن ينظم إليها، لكنّ ذلك لم يحدث لأسباب ذاتية و أخرى موضوعية. شارك في الخمسينات في نشاط نوادي التّهذيب التّابعة لجمعية العلماء، ونشر عدّة مقالات في جريدة الشّباب المسلم وجريدة البصائر، ولقد اعترف لها بالفضل في تكوين جانب كبير من العقل الجزائري، وبثّ روح الإصلاح في النّفوس. [2]

❁**انتقاله إلى مصر**: سافر مفكّرنا عام **1956** إلى مصر واستقرّ بالقاهرة، واتّصل هناك بالنّخبة الفكرية والسّياسية، وقد سطع نجمه في أوساط الطّلبة والمفكّرين العرب هناك. كان حريصا على حضور النّدوة التي كانت تنعقد في بيت العالم محمود محمّد شاكر، كما دأب على عقد ندوات فكرية في بيته صباح كل يوم جمعة، كان يحضرها -من تلاميذه- أستاذنا الدّكتور عمار الّطالبي. تعرّف مالك بن نبي على عبد الصّبور شاهين –و كان طالبا- الذي ترجم فيما بعد أهم كتبه إلى اللغة العربية.

1- د/ مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة –المرجع السّابق- ص 14-15-16.

2- المرجع نفسه ص 17- 18- 19- 20.

❋**علاقته بالثّورة التّحريرية**: كان منظّرا للثّورة، بل يعتبرها تجسيدا لأفكاره، وأفرد لها كتابا سمّاه "في مهبّ المعركة"، وعندما وصل إلى القاهرة عرض خدماته على قادة الثّورة، إمّا ممرضا أو كاتبا لتاريخها. وفي سنة **1957** ألّف كتيبا بعنوان " النّجدة للجزائر، الشّعب الجزائري يباد." كما تحدّث عن الثّورة في برنامج "صوت العرب" في الإذاعة المصرية. ولكنّه مع ذلك لم يكن راضيا عن بعض قادتها، فانتقد توجّهاتهم العلمانية، وانحرافهم عن مسارها، واهتمامهم بمصالحهم الشخصية [1]. وكان أكثر ما يخشاه مالك بن نبي أن يفرز التّطوّر الثّوري ثورة مضادة مقنعة؛ لتسبق إلى احتلال المراكز قبل أن تحتلّها الثورة الأصلية، أو أن تفسح الثّورة الأصلية المجال شيئا فشيئا لثورة مضادة [2].

❋**مالك بن نبي وجزائر الاستقلال**: عاد مالك بن نبي إلى الجزائر عام **1963**، فعيّن مديرا للتّعليم العالي، ليستقيل عام **1967** ويتفرّغ للعمل الفكري؛ حيث فتح بيته للطّلبة لحضور ندواته الأسبوعية يومي السّبت والأحد. تحوّلت ندوة مالك بن نبي الأسبوعية إلى ملتقى للفكر الإسلامي عام **1968**؛ لتتبناه وزارة الشّؤون الدّينية والأوقاف عام **1970**. توفي فيلسوفنا في **31** أكتوبر **1973** في الجزائر بعد أن ترك تراثا فكريا ثريا بالعربية والفرنسية، ومقالات جمعت ونشرت في شكل كتب[3].

رحم الله من أعياه الهمّ الحضاري لأمّته، وأقلقه الجمود الفكري لمجتمع إسلامي كان من الواجب أن ينتج أفكاره بدل أن يجترّ أفكار غيره.

1- المرجع السابق ص 25- 26.

2- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة الدكتور بسام بركة، و الدكتور أحمد شعبو، -دار الفكر الجزائر-، الطبعة الأولى 1992 ص 122.

3- د/ مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة ص 27- 28- 29- 30.

ثانيا:

***تحديد المفاهيم المفتاحية:**

1- الدين: للدين عدّة تعريفات، فهو: **" أ-** مؤسسة اجتماعية متميّزة بوجود إيلاف من الأفراد المتّحدين؛ بأداء العبادات المنتظمة وباعتماد بعض الصّيغ، أو بالاعتقاد بقيمة مطلقة، أو بتنسيب الفرد إلى قوّة روحية أرفع من الإنسان، وهذه ينظر إليها إمّا كقوة منتشرة، وإمّا كثيرة وإمّا وحيدة هي الله..." [1]

ب- أو "هو نسق فردي لمشاعر واعتقادات وأفعال مألوفة، موضوعها الله." والدين الطّبيعي (استعمل هذا التعبير خصوصا في القرن 18) هو مجموعة اعتقادات بوجود الله ورحمته، وبروحانية النّفس وخلودها، وبالطّابع الإلزامي للعمل الأخلاقي، باعتبارها كلّها من وحي الضّمير (النّور الدّاخلي) الذي ينوّر كل إنسان..." [2]

ج- أو "هو الاحترام الضميري لقاعدة، لعادة، لشعور.. إنّ هذا المعنى الذي قد يكون الأكثر قدما، كان في الماضي أكثر تداولا ممّا هو عليه اليوم." [3]

د- أو "هو منظومة متماسكة من المعتقدات والممارسات المتعلّقة بأمور مقدّسة... وهي معتقدات وممارسات تجمع في إيلاف أخلاقي واحد -يدعى جامعا- كل الذين ينتمون إليه" [4].

ويرى معظم القدماء في فكرة الدين معنى الربط والصلة، سواء الرّبط الواجب تجاه بعض الممارسات، أو الربط الجامع بين الناس، أو بين البشر والآلهة (religio)، ويشتق تشيشرون الكلمة من relire بمعنى تجديد الرّؤية بدقّة.

" وهو بنحو عام – كما يعلّق لالاند على ذلك– الإحساس المصحوب بخوف وتأنيب ضمير، بواجب ما تجاه الآلهة." [5] فالدين بنحو عام موضوعه الله.

1- لالاند، المعجم الفلسفي، تعريب: خليل أحمد خليل وأحمد عويدات، عويدات للنّشر والطّباعة، 2012 ص 1204.
2- المرجع نفسه والصّفحة نفسها.
3- المرجع نفسه ص 1206
4- المرجع نفسه ص 1206
5- المرجع نفسه والصّفحة نفسها.

أمّا مالك بن نبي، فإنّه يربط الدّين ببعده الاجتماعي فهو "كلّ عقيدة تقدّم مبرّرا للحياة، وتحدّد سلوكه الاجتماعي." [1] وعلى هذا فإنّ الدين يلعب دور المحرّك الاجتماعي؛ وبهذا المعنى، يمكن اعتبار الشّيوعية دينا، ولكن هذا التحديد عام للدين، فالفرق كبير –مثلا- بين الإسلام كدين سماوي والشيوعية كدين أرضي وضعي، بل حتى في الجانب الاقتصادي، فإنّ العلاقات الاقتصادية في الإسلام تقوم على مبدأ الواجب، أمّا في الشيوعية فإنّها تقوم على مبدأ الحقّ. ثمّ إنّ الفعالية الاجتماعية في الشيوعية هي نتائج طبقة العمال، أمّا في الإسلام فإنّها نتاج الروح التي يغذيها العلماء الرّبانيون[2]. إنّها الصّوت الذي يشدو كلّ صباح، على امتداد آفاق الإسلام؛ ليجعل الفرد مشدودا إلى الله، كما حدث مع إبراهيم[3] – بطل رواية لبيك- الذي سما به عن الذّات وعن العالم الأرضي، وجعله يحسّ برابطة الأخوّة الإسلامية[4]. ولهذا فإنّ الدين لا يغيّر المجتمع قبل أن يغيّر الفرد، ذلك لأنّ اعتناق الناس لدين من الأديان لا يكون - لما يرجون من متاع ولذّة، بل لما يثور في قلوبهم من دواعي الشّرف والعظمة- [5].

2- الحضارة (المدنية): أ- " الحضارة هي مجموعة ظواهر اجتماعية مركّبة، ذات طبيعة قابلة للتّناقل، تتّسم بسمة دينية، أخلاقية، جمالية فنية، تقنية أو علمية، ومشتركة بين كل

1- Malek Bennabi, La réalité et le devenir : traduit de l’arabe et préfacé par Nour-Eddine khendoudi , Dar alem el afkar pour l’édition- Algerie2004, p 63.

2- Ibid p 94.

3-مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ترجمة زيدان خوليف، دار الوعي للنّشر والتّوزيع، الجزائر، الطّبعة الأولى 2013 ص 80.

4- المصدر نفسه ص 84.

5-توماس كارليل، محمّد المثل الأعلى، تعريب محمّد السّباعي، دار طيبة للطّباعة "الجيزة" الطّبعة الأولى 2008 ص 112.

الأجزاء في مجتمع عريض، أو في عدّة مجتمعات مترابطة (كحضارة المتوسّط). [1]

ب- أو هي " -في مقابل الحالة الوحشية أو البربرية– هي مجمل المزايا المشتركة بين الحضارات (بالمعنى أ)، والتي تعدّ الأرقى بتفوّقها العلمي و التّقني، وبتنظيمها الاجتماعي، (حضارة أوربا والشعوب التي تبنتها في خطوطها الكبرى.)[2]

ج- "فعل التّحضّر هو فعل الإنتاج والإنماء الحضاري بالمعنى (ب). [3]

❋**<u>معنى الحضارة عند مالك بن نبي</u>**: يميّز مالك بن نبي بين **التّعريف الانتربولوجي** و**التعريف الوظيفي**:

<u>أ- التعريف الانتربولوجي</u>: هو كلّ شكل من أشكال تنظيم الحياة البشرية. [4]

ب- <u>التّعريف الوظيفي</u>: "هي مجموعة الشّروط الأخلاقية والمادية التي تسمح لأي مجتمع أن يقدّم لكلّ فرد من أفراده، في كلّ مرحلة من مراحل وجوده، -من الطّفولة إلى الشّيخوخة- المساعدة الضرورية في هذه المرحلة من نموّه وتطوّره."[5] ويعتبر التّقدّم الاقتصادي المظهر المادي لهذه الحضارة؛ذلك لأنّها وظيفة ذات جانبين، جانب الإرادة الحضارية وجانب الإمكان الحضاري[6]، "فالحضارة هي التي تمنح المجتمع –مع القدرة الاقتصادية- إرادة استخدام هذه القدرة في حلّ جميع المشكلات... كما أنّها هي التي تشكّل هذه القدرة وهذه الإرادة." [7]

1- لالاند: المعجم الفلسفي ص 172.

2- المرجع نفسه والصّفحة نفسها.

3- المرجع نفسه ص 173.

4- Malek Bennabi , Les grands thèmes , Edition El Borhane-2005, p 24.

5- Ibid. p 33.

-انظر أيضا: مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة الطيّب الشّريف، مكتبة النّهضة الجزائرية طبعة 1991ن ص 46- 47.

6-مالك بن نبي، مجالس دمشق، دار الوعي للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى 2013 ص 68.

7- مالك بن نبي، آفاق جزائرية ص 45- 46.

إنّ مالك بن نبي يربط الحضارة بالتّقدّم، ويربط التقدّم بإرادة الإنسان، وبقدرته على الإبداع الثّقافي، فهي "ليست كلّ شكل من أشكال التّنظيم للحياة البشرية في أي مجتمع كان، ولكنّها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية... يظهر في استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معيّنة، ليس المجتمع المتخلّف في حالة تكيّف معها، لا من حيث رغبته ولا قدرته (لا من حيث الأفكار ولا الوسائل). [1]

3-<u>الثقافة</u>: أ-"بالمعنى الأضيق،و الأقرب من المعنى المادي،هي تطوّر(أو نتيجة تطور) بعض الملكات ،ملكات العقل أو الجسد؛بدربة ملائمة (الرياضة البدنية)-(ارتياض، دربة رياضية خالصة)"

ب-"بنحو عام، وعادة: **<u>أولا</u>:** -ميزة شخص متعلم، كان قد طوّر بهذا التعلم ذوقه، حسّه النقدي، و حكمه؛ **<u>ثانيا</u>**:تربية يتولد عليها توليد هذه الميزة."

ج-"الثقافة مرادفة الحضارة " و بشكل عام فإن المعرفة شرط للثّقافة ،لكنها وحدها لاتكفي.[2]

❁**<u>مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي</u>:** يرى مالك بن نبي أن مفهوم الثقافة عند الغرب ارتبط بفلسفة الإنسانيات، وفي البلاد الاشتراكية ارتبط بفلسفة المجتمع، أما نحن فنربطها بالحضارة، فهي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة، إنّها "مجموعة من الصّفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، فهي المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته." [3]

لكن الثقافة مرتبطة بالحضارة والمدنية فهي « الوسط الذي تتكوّن فيه خصائص المجتمع

1- المصدر السابق ص 96.

2- لالاند، المعجم الفلسفي ص 241.

3- مالك بن نبي، شروط النّهضة، عمر كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين –دار الوعي للنّشر والتّوزيع- الجزائر، الطّبعة الأولى، بدون تاريخ ص 89.

المتحضّر... وتتشكّل جزئياته... تبعا لغاية عليا..." [1]

- إنّ الثّقافة " هي الدم في جسم المجتمع، يغذي حضارته، ويحمل أفكاره داخل سائل واحد من أذواق واتّجاهات واستعدادات متشابهة (النّاحية التّربوية للثّقافة.)" [2]

إنّ مالك بن نبي يربط الثّقافة في المجتمعات المتخلّفة بالفعالية، والفعالية تعتمد على أسلوب الحياة في مجتمع ما، وعلى سلوك الفرد المنسجم مع هذا الأسلوب[3]، إنّها علاقة متبادلة بين الفرد والمجتمع، والمجال الروحي الذي ينمي فيه الفرد وجوده النّفسي.[4] إنّ الثقافة لا ترتبط بالتّسلي، بل بحسن العمل في نطاق العمل المشترك، حيث تتكاثف الأيدي والعقول والضّمائر، فهي " الجوّ الذي تتكتّل فيه الجهود، حين تجد في هذا الجوّ كلّ شروط تكتّلها وتجمّعها، وتجد المسوّغات لذلك."[5]

وعلى هذا فإنّ بن نبي يختلف في تحديده لمفهوم الثّقافة مع التّحديدات الكلاسيكية، كتعريف عصر النّهضة بأنّها " مجموع ثمرات الفكر في ميادين الحضارة؛ فلسفة- فن- علم- قانون"، و كتعريف رالف لينتون بأنها " كل متداخل الأجزاء ذو مستويين: المستوى الأوّل يحدّد العقلية الخاصة بالنّموذج الاجتماعي، والذي يطبع سلوك الأفراد.

- المستوى الثّاني هو مستوى الأفكار المرتبطة بالتّخصّص المهني الذي على أساسه نفرّق بين الطّبقات. ثمّ مستوى ثالث هو الإطار الثّقافي."

ويختلف أيضا عن الوجهة الماركسية التي تجعل الثّقافة انعكاسا للواقع الموضوعي (الحياة المادية للمجتمع). [6]

1- المصدر السابق ص 92
2- المصدر نفسه ص 93.
3- مالك بن نبي، مشكلة الثّقافة ص 42.
4- المصدر نفسه ص 50.
5-مالك بن نبي، مجالس دمشق ص 96.
6- مالك بن نبي، مشكلة الثّقافة ص 30-31-32.

إنّ هذه التّعريفات صادرة عن فكر إحصائي يتمّ في عالم الأفكار أو عالم الأشياء، أمّا الماركسية فقد ركّزت على الشّروط المادية، مع أن فيها عنصرا سلبيا هدّاما (ثوريا). إنّه من الضروري فهم الواقع الاجتماعي لتحديد مفهوم معيّن للثّقافة عند الغرب، أمّا عندنا فإنّه مرتبط بخلق واقع اجتماعي معيّن لم يوجد بعد[1]. معنى هذا أنّ هذه التّعريفات صحيحة في نطاقها الاجتماعي، لكنّها لا تنطبق مع مجتمعنا، فالمشكلة ليست مشكلة فهم واقع ثقافي معيّن بل خلق هذا الواقع.

إنّ الفرق بين هذه التّعريفات للثّقافة هو فرق بين مجتمع أخذت فيه الثّقافة صورة واقع اجتماعي، وآخر يحدّدها كمشروع، أمّا مجتمعنا فمازال مفهوم الثّقافة فيه غامضا.

4- **<u>الإيديولوجيا (الفكروية)</u>**: كلمة ابتكرها "دستوت دوتراسي"، وهي:

أ - "علم موضوعه الأفكار بالمعنى العام لظواهر الوعي، ومزاياها وقوانينها، وعلاقتها مع العلامات التي تمثّلها وبالأخصّ أصلها."

ب- "وبالمعنى المبتذل، هي تحليل ونقاش فارغان لأفكار مجرّدة، لا تتطابق مع وقائع حقيقية."

ج- هي "مذهب يلهم أو يبدو أنّه يلهم حكومة أو حزبا."

د- هي "فكر نظري يعتقد انّه يتطوّر تطوّرا تجريديا، في غمار معطياته الخاصة به، لكنّه في الواقع تعبير عن وقائع اجتماعية، ولاسيما عن وقائع اقتصادية، فكر لا يعيه ذلك الذي يبنيه، أو على الأقل لا يأخذ في حسبانه أنّ الوقائع هي التي تحدّد فكره بالمعنى المتداول عند الماركسية."[2]

وكان ماركس يطلق كلمة "فكروي" أو "إيديولوجي" على الذي يضع على المشرحة الأفكار لا الوقائع المادية، أي على كلّ من يعطي الأولوية للأفكار والمعتقدات الدّينية والأنساق الفلسفية على الوقائع الاقتصادية.

1- المصدر السابق ص 35-36.

2- لالاند، المعجم الفلسفي ص 611.

ويعرّفها "إنجلز" بأنّها "مجموعة أفكار حيّة حياة مستقلّة، وخاضعة فقط لقوانينها الخاصة بها، بما أنّ شروط الوجود المادي للبشر الذين يتواصل هذا المسار الإيديولوجي في دماغهم، هي التي تحدّد في التّحليل الأخير مجرى هذا المسار، فإنّ هذه الواقعة بكاملها تظلّ مجهولة لديهم، وإلّا فإنّ ذلك قد يعني نهاية كلّ إيديولوجية." [1]

❋ **مفهوم الإيديولوجية عند مالك بن نبي:**

-الإيديولوجية هي الطّاقة الدّافعة الموجّهة لكلّ أفراد المجتمع نحو غاية واحدة هي المصلحة العليا للأمّة [2]، إنّها عمل مشترك يستلزم بالضّرورة تنظيم وتنسيق جميع المعطيات، وخاصة جميع الأفكار التي تنهض بالنّشاطات الفردية. أو هي حشد كلّ طاقة الشّعب في نشاطه المشترك لاجتياز محنة حاسمة [3]. وربّما يرادف مصطلح الإيديولوجية مصطلح المفهومية عند مالك بن نبي.

إنّ الإيديولوجية هي التي تسمح لنا بالقيام بدفعة حضارية جديدة، لكن لابدّ من إيديولوجية محفزة تصنع همّة عالية، روحا خلّاقة "تروّض الطّاقة الحيوية للإنسان وتجعلها مخصّصة للحضارة [4]، ولقد قامت الدّيانات في كثير من المناسبات بهذا الدّور.

ولكلّ ثورة إيديولوجيتها، ولابدّ للإيديولوجيا كي تنجح من إجماع اجتماعي حول مصالح مشتركة. لكن مالك بن نبي يؤكّد أنّ "المصالح العابرة قد تجعل الفرد يقوم بأعمال بطولية، لكنّ إيديولوجيتها لا تؤثّر في النّفوس كما تؤثّر الفكرة الأبدية ذات الجوهر الأخلاقي

1- المرجع السابق ص 612.

2- Malek Bennabi, Pour changer l'Algérie, Articles de presse, société d'édition et de communication 1989 p 33.

3- مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة "الطّيّب الشّريف"، مكتبة النّهضة 1991 ص 176.

4-- المصدر نفسه ص 186.

الميتافيزيقي، التي تجعل الإنسان يضحّي بمصالحه بل بنفسه؛ من أجل غاية عليا." [1]

معنى هذا أنّ الإيديولوجيا مرتبطة بالمسوّغات التي توجّه كلّ الطّاقات الاجتماعية، ولن يجد العالم الإسلامي أسمى ولا أقوى، ولا أكثر فعالية من الإسلام كمسوّغ، فهو كفيل "بتحقيق أقصى ما يمكن من التّوتّر في الطّاقات الاجتماعية، وأسمى ما يمكن من المصلحة التي تخدمها تلك الطّاقات."[2]

☜ما الذي يجمع هذه المفاهيم الأربعة؟

إنّ الحضارة هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع ما قبل الحضارة الدّفعة التي تدخل به التاريخ، إنّها الفكرة الدّينية التي تحرّك الإنسان نحو التّحضّر، والحضارة هي القدرة على إبداع ثقافة تتجسّد في سلوك الفرد وفي أسلوب الحياة الاجتماعية، والفكرة الدينية هي أفضل ما يمكن أن يجتمع عليه أفراد المجتمع الواحد؛ لتحقيق غاية قد تتجاوز المصالح العابرة، بمعنى أنّها تصلح كإيديولوجية اجتماعية.

وعليه فإنّ هذه المفاهيم ترتبط ببعضها البعض، على الأقل عند مالك بن نبي؛ فالفكرة الدّينية تتحوّل إلى إيديولوجية جامعة ودافعة، طاقة خلّاقة وموجّهة للعمل الحضاري، والذي من نتائجه إبداع ثقافة اجتماعية، تعبّر عن أسلوب حياة راق (أخلاقيا، جماليا، عمليا، تقنيا) تتجسّد فرديا في سلوك حضاري فعّال واجتماعيا في أسلوب حياة منسجم.

1- Malek Bennabi, Pour changer l'Algérie (op) p 35- 36.

2-مالك بن نبي، تأمّلات، دار الوعي - الجزائر- الطّبعة الأولى 2013 ص 48.

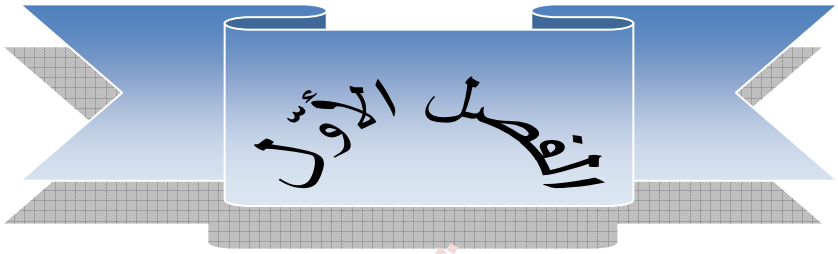

شروط النهضة الحضارية وموقع الفكرة الدينية منها

أوّلا:

عوامل النّهضة الحضارية عند مالك بن نبي:

يقول مالك بن نبي: "لا يمكن أن نشتري كلّ شيء، فحضارة الآخر لا تبيعنا روحها، فهي لا تمنحنا إلّا هيكلها وجسدها."[1] نعم إنّ الآخر لا يمنحنا حضارته، بل يمنحنا منتجات هذه الحضارة فقط، وحتى لو استطعنا شراء كلّ هذه المنتجات، فإنّ هذا لا يعني أننا بنينا حضارة، بل كلّ ما هنالك أنّنا كدّسنا منتجات حضارة غيرنا، وبالتالي أسّسنا لحضارة الكمّ والشيئية[2].

هل نستطيع أن نقول بأنّ دول الخليج الغنيّة بنت حضارة؟ بلا شكّ أنّ الإمارات العربية المتّحدة –مثلا- تملك موانئ ومطارات بمعايير عالمية، وأبراج وناطحات سحاب هي الأعلى في العالم، ومستوى الدّخل الفردي فيها جدّ مرتفع، ومع ذلك يحقّ لنا أن نتساءل: هل الإمارات العربية، أو العربية السّعودية أو قطر، شيّدت حضارة؟ الإجابة بكلّ بداهة: إنّ هذه الدّول لم تستطع أن تحقّق الإقلاع الحضاري؛ ببساطة لأنها لم تحقّق شروط هذا الإقلاع.

☜فما هي عوامل الإقلاع الحضاري؟

قبل أن نتحدّث عن شروط النّهضة الحضارية عند مالك بن نبي، من الضروري أن نذكر موقف مالك بن نبي من نظريات بعض كبار فلاسفة الحضارة حول ذات الموضوع؛ أمّا ابن خلدون فإنّنا "لم نجد فيما ترك غير نظرية عن تطوّر الدّولة، في حين أنّه كان من الأجدى لو أنّ نظريته رسمت لنا تطوّر الحضارة..."[3] فابن خلدون اهتمّ بالجانب السياسي لا الجانب الحضاري، فتحدّث عن العامل الأساسي لنشأة الدّولة المتمثّل في العصبية القبلية، ثمّ

1- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 47.
2- المصدر نفسه ص 49.
3- المصدر نفسه ص 69.

إنّ تأمله لبناء الدّول وسقوطها انصبّ على الدّول الإسلامية التي نشأت في منطقة المغرب الإسلامي. كما أنّه تحدّث عن أطوار الدّول لا أطوار الحضارات، حيث يقول في مقدّمته: "إلّا أنّ الدّولة في الغالب لا تعدو ثلاثة أجيال، والجيل عمر شخص واحد من الوسط، فيكون أربعين."[1]

وأمّا الماركسية فقد "أفرطت في المنهجية على أساس من حتمية مادية ميكانيكية لا إرادية لتخطيط الحضارة." [2] بمعنى أنّها غيّبت الإرادة الحضارية للإنسان، وجعلت عالم الأفكار انعكاسا لعالم الأشياء، فالبنى التّحتية المتمثّلة في وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج هي التي تصنع البنى الفوقية المتمثّلة في الإيديولوجيا (بالمفهوم الماركسي للمصطلح).

وفي القرن العشرين برز مفكّرون آخرون في مجال الحضارة، أمثال: "كسرلنج" الّذي ركّز اهتمامه على الحضارة الأوروبية، بحيث فسّرها باعتبارها تركيبا من روح المسيحية وتقاليد الجرمان، وهي نظرة ضيّقة الأفق تقوم على فكرة المركزية الأوربية، والأنامركزية عند المفكّرين الغربيين، وكأنّ الغرب وحده صانع الحضارة، وكأنّ حضارته لا تزول. ويرى الفيلسوف الألماني "شبنجلر" أنّ الحضارة ثمرة لعبقرية خاصة، تسم عصرا معيّنا بميسم إبداع أساسي عند جنس معيّن، فلكلّ عصر عبقريته أو روحه الكلي –كما يؤكّد ولتر شوبرت- [3] ولكن ما الّذي يجعل هذه العبقرية تتفتّق؟ ما الّذي يدفع هذه العبقرية الخلّاقة إلى الظّهور؟ ألا تحتاج إلى دفعة حيويّة تغذيها فكرة ما؟

"إنّ التاريخ –كما يقول مالك بن نبي- ليس ما تصنعه الصّدف ولا مكائد الاستعمار، ولكن ما تصنعه الشعوب ذاتها في أوطانها."[4]

1-عبد الرّحمان بن خلدون، المقدّمة، دار الجيل –بيروت- بدون تاريخ ص 188.

2- مالك بن نبي، شروط النهضة ص 70.

3- المصدر نفسه ص 71.

4- مالك بن نبي، بين الرّشاد والتيه، دار الوعي للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الثانية 2012ص68.

ولذلك ركّز المؤرّخ الإنجليزي "أرنولد توينبي" على فكرة التّحدي وردّ الفعل أو الاستجابة، كعامل للانطلاقة الحضارية، ولكنّه اعتبر أنّ مصدر التّحدّي هو الطّبيعة خاصة[1]. "لكن الطّبيعة –كما يقول مالك بن نبي- توجد النّوع، أمّا التّاريخ فيصنع المجتمع، وهدف الطّبيعة هو مجرّد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التّقدّم نحو شكل من أشكال الحياة الرّاقية، هو ما نطلق عليه اسم الحضارة." [2] إنّ أعظم ما يؤثّر في الإنسان هو الفكرة، نعم قد يستجيب لتحدّ ذي طابع مادي أو فني، لكن أكبر تحدّ هو الذي يحفز القوّة الروحية في الفرد والمجتمع، أي لا بدّ أن يكون ذا طابع روحي أخلاقي.[3]

إنّ مالك بن نبي لا يرفض هذه النّظريات، ولكنّه يرفض نظرتها الجزئية وسطحيتها ، فهو لا ينكر دور الوسائل المادية في صنع الحضارة، ولا فكرة التّحدّي والمعيقات، ولا فكرة الصّراع والتّناقض، ولا أثر الفكرة المسيحية في نشأة الحضارة الأوربية، لكن الوسائل وحدها لا تصنع حضارة، والتّحدّي الطّبيعي أو الاقتصادي أو السّياسي هو تحدّ مؤقّت، أمّا الفكرة المسيحية فهي تصلح فقط لتفسير نشأة الحضارة الغربية.

إذن **فما هي عوامل نشأة الحضارة عند مالك بن نبي؟ وأين يكمن دور الدّين في ذلك؟**

إنّ الحضارة عند مالك بن نبي هي ناتج تركيب ثلاثة عناصر هي: الإنسان+ التّراب+ الزّمن. [4]

1- **<u>الإنسان</u>:** - إنّ الاستثمار الحقيقي يكمن في الإنسان، فالتّغيير لا يكون إذا لم نغيّر الإنسان، " إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم." [5]، فمنطلق كل تغيير هو الفرد، لابدّ من إنشاء الشّروط النّفسية لحركية اجتماعية؛ ولذلك فإنّ أوّل عمل يجب أن يقوم به المجتمع هو

1-- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 72.

2- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصّبور شاهين، دار الفكر والطّباعة والنّشر، دمشق، الطّبعة الثّالثة 1986، ص 19.

3- المصدر نفسه ص 23- 24.

4- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 49.

5-سورة الرّعد، الآية 11.

بناء شبكة علاقات اجتماعية متينة، وهذا ما قام به النبي محمّد -صلى الله عليه وسلم- بمجرّد دخوله المدينة، فقد آخى بين المهاجرين والأنصار؛ ثمّ بنى مسجدا لتمتين الرّوابط الاجتماعية، والحفاظ على هذه الأخوّة، فاجتماع المسلمين في المسجد رمز المجتمع وتذكاره – كما يقول مالك بن نبي- [1] فإن فسدت العلاقات الاجتماعية وتمزّقت شبكة العلاقات الاجتماعية، كان لذلك انعكاسه السّلبي على عالم الأفكار وعالم الأشياء، وبالتالي على البناء الحضاري.[2]

"إنّ معنى التّحضّر هو أن يتعلّم الإنسان كيف يعيش في جماعته، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرّئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية، من أجل وظيفتها التّاريخية." [3]

ولكن الفرد ولكي يندمج في شبكة العلاقات الاجتماعية، ينبغي أن يجد في ذاته دافعا نفسيا قويا، يعدّ شرطا لقبوله داخل الدّيناميكية الاجتماعية، وعليه فلابدّ من الاستثمار في ذلك.

2-<u>التّراب</u>: عامل آخر من عوامل الحضارة هو **التّراب،** أو العنصر المادي في بناء الحضارة، أو بتعبير المار كسية (وسائل الإنتاج)، الثّروات الباطنية، استغلال الأرض؛ أي إبداع وسائل البناء الحضاري انطلاقا مما هو موجود لكن هذا العامل مرتبط بالعامل الأول، فلا بد من إبداع أفكار نستثمرها في إبداع وسائل الحضارة. فمشروع ينظر إليه بأفكار الآخرين، و ينفذ بوسائلهم أو بوسائل منعدمة مآله الفشل. إذن علينا أن نختار في بنائنا الحضاري الوسائل المتاحة، فلا نستثمر أي شيء، ولا نعتمد فقط على وسائل الآخرين لبناء مشروع لا نقدر عليه، بل نطلب ما نقدر عليه وفق وسائلنا المتاحة.[4]

لقد استطاع المجتمع الياباني أن يبدع وسائله الخاصة، باستثمار ما هو متاح، و السبيل

1- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص 31.

2- المصدر نفسه ص 48.

3- المصدر نفسه ص 94.

4- Malek Bennabi, pour changer l'Algérie (op) p 110.

لتحقيق ذالك هو العمل "لقد شغلت اليابان آلتها الاجتماعية كلها من خلال الاستثمار في عالم الأشخاص و عالم الأفكار؛ ليكون الاستثمار في عالم الأشياء فعالا و منتجا.

وكذالك الحال بالنسبة للاتحاد السوفياتي الذي انتقل من المجتمع الزراعي التقليدي إلى غزو الفضاء في ظرف خمسين عاما، بحسن الاستثمار في عالم الأشياء."[1]

3-<u>الوقت</u>: العامل الثالث من عوامل الحضارة هو **الوقت** أو **الزمن**، ولكننا لا نقصد الزّمن المنفصل، بل الزّمن المتّصل –بتعبير برغسون- ، الزّمن النّفسي الحيّ، الزّمن الحضاري؛ فلكلّ دقيقة وزنها، والحضارة هي حاصل كلّ الدّقائق المنتجة. إنّ الزّمن رأس مال حقيقي في النّهضة الحضارية لأيّة أمّة، فالساعات الحاسمة في التاريخ تمتزج فيها قيمة الزّمن بغريزة الحفاظ على البقاء، وبالتالي فإنّ قيمة الزّمن لا تقوم بالمال، فالوقت هو الحياة، ولابدّ من ربطه بالفعالية والإنتاج. [2]

لقد بدأت ألمانيا نشاطها سنة 1948، بعد أن دمّرت بنيتها التّحتية بالكامل، لكنّها استطاعت بفضل حسن استغلال الزّمن، والتّجنيد العام، والالتزام بالواجب تجاه الأمّة أن تصبح دولة صناعية من المستوى الأوّل.[3] لقد التزم كلّ ألماني أن يتطوّع بساعتي عمل إضافية من أجل أمّته.

والنّتيجة أنّ كلّ نتاج حضاري هو إنتاج للإنسان والتّراب والزّمن، وهذا ما يؤكّده مالك بن نبي حين يقول: " إنّ مجموع منتوجات حضارة ما يساوي مجموع الأشخاص، بزيادة مجموع ضروب تراب، وزيادة مجموع الأزمنة." [4]

إنّ هذه العناصر الثلاثة هي مجموع الرّصيد الحضاري، وهي العناصر البسيطة التي تتأسّس عليها كل حضارة، ولابدّ أن نميّز بينها وبين المنتوج الحضاري؛ فالعلم مثلا منتوج حضاري وليس رصيدا حضاريا، بمعنى أنّه إنتاج للإنسان والتراب والزّمن، ذلك لأنّه ليس بسيطا بل

1- Ibid p 129.

2- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 145.

3-المصدر نفسه ص146.

4- مالك بن نبي، آفاق جزائرية ص 72.

مركّبا، أمّا الزمن فهو بسيط، وكذلك عنصرا الإنسان والتراب. ثمّ لو أنّنا نزعنا واحدا من هذه العناصر الثلاثة لم تنشأ الحضارة، أمّا العلم فهو ينشأ عن تركيب هذه العناصر الثلاثة البسيطة. [1]

ولكن هذه العناصر الثلاثة لا تمارس مفعولها ضمن حالة تشتيتية، بل ضمن تركيب متآلف، يؤدي من خلال تناسق عناصره إلى تحقيق قدرة المجتمع المتقدّم[2]، أي إلى تحقيق الإرادة الحضارية للمجتمع. لكن أيضا لابدّ من عنصر رابع لتحقيق هذا التركيب المتآلف، إنّه الفكرة الدينية، "فالعنصر الدّيني فضلا عن أنّه يغذي الجذور النّفسية العامة، يتدخّل مباشرة في الشخصية التي تكوّن الأنا الواعية للفرد، وفي تنظيم الطّاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة الأنا... ثمّ تتحوّل هذه الطاقة إلى نشاط اجتماعي ثمّ إلى نشاط مشترك للمجتمع." [3]

إنّ وجود العناصر الثلاثة التي ذكرناها سابقا لا يعني بالضّرورة وجود حضارة، فقد توجد وقد لا توجد، تماما كما أنّ الأكسجين والهيدروجين لا يكوّنان الماء تلقائيا. إنّ عوامل الحضارة الثلاثة بحاجة إلى مركّب يمزج بينها، وهذا المركّب هو الفكرة الدّينية. [4]

لقد انطلقت كلّ حضارة من الفكرة الدينية، ولو كانت هذه الحضارة وثنية، فهي مبدأ انبعاثها، يقول مالك بن نبي: " تبدأ الحلقة الأولى للحضارة بظهور فكرة دينية، ثمّ يبدأ أفولها بتغلّب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تفقد الروح ثمّ العقل، ثمّ تنطلق الغرائز."[5]

فالحضارة الإسلامية نشأت بتركيب العناصر الثلاثة المكدّسة، بعد أن تجلّت الرّوح بغار حراء، وقد استطاع أناس أميّون، بدو، فقراء أن يشيّدوا حضارة يشهد التاريخ على عظمتها،

1- مالك بن نبي، مشكلة الحضارة: نص المحاضرة التي ألقاها مالك بن نبي في الملتقى السّنوي للفكر الإسلامي 1970، وقد نشرتها مجلّة الأصالة الصّادرة عن وزارة الشّؤون الدّينية والأوقاف ، الصّادر في فيفري 1998 ص 142- 159 (نقلا عن د/ مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة ص 188- 189).

2- مالك بن نبي، آفاق جزائرية ص 79.

3- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص 72.

4- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 50.

5- المصدر نفسه ص 59.

كما استطاع النّبي –صلى الله عليه وسلّم- أن يوحّد أقواما شتتتهم الحروب والنّزاعات، وأن يؤسّس مجتمعا بكامل مقوّماته الحضارية، وأن يبني دولة قويّة في ظرف ثلاث وعشرين عاما. ولقد امتدّت حدود المجتمع الإسلامي في عهد عمر بن الخطّاب، من فارس وما وراءها شرقا، إلى طرابلس الليبية غربا وذلك في أقلّ من ثلاثين عاما، وكان وراء هذه الوثبة الحضارية روح المؤمن، التي ظلّت العامل الأساسي لقيام الحضارة الإسلامية قبل صفين (38هـ). [1]

وحتى الحضارة الأوربية فإنّ وراءها الفكرة المسيحية، يقول "هرمان دي كسرلنج" : "إنّ الميلاد النّفسي للحضارة المسيحية متوافق مع ظهور روح خلقي." [2]

وإنّ جذور هذه الحضارة تمتدّ إلى شارلمان، فلمّا بدأت النّهضة خرجت هذه الحضارة من مرحلة الرّوح إلى مرحلة العقل والتّوسّع الجغرافي. [3]

ولقد كان من إرهاصات النّهضة الأوربية الإصلاح الدّيني، ثمّ إنّ الأفكار التي صبغت الحضارة الغربية الحديثة وثوراتها التّغييرية الكبرى، استلهمت من الرّوح الأخلاقية المسيحية، كالأخوّة، المساواة، التّسامح، كرامة الإنسان الخ...

ماذا عن الماركسية؟ يؤكّد بن نبي أنّها أيضا دين، فهي –كما يقول- "تمثّل نشاط مؤمنين مدفوعين بقوى داخلية مثل غيرهم من المؤمنين. [4] -بل أكثر من ذلك- ورغم أنّها فكرة إلحادية لا دينية فقد استمدّت حيويّتها في سطح التّربة الخصبة للمسيحية، فالفكرة المسيحية كانت رائزا أو منبّها للفكرة الماركسية.

- إنّ الفكرة الدينية تولّد الحضارة مرتين: المرّة الأولى حينما تولّد الفكرة ذاتها، والمرّة الثانية حينما تلج هذه الفكرة الأنفس، ثمّ تتجسّد في شكل سلوك اجتماعي يصنع التاريخ. [5]

1-المصدر السابق ص 58.

2- المصدر نفسه ص 62.

3- - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

4- المصدر نفسه ص 60.

5- المصدر نفسه ص 61.

إنّها حينما تظهر تجد الفرد في الحالة الطّبيعية الفطرية، أي مادّة خام، فتقوم بإخضاع غرائزه وكبتها، دون أن تقضي عليها، بل تضبطها، تهذّبها، وتنظّمها وفق ما تقتضيه قوانين الرّوح، فهي التي توجّه طاقته الحيويّة نحو هدف سماوي نبيل. ولكنّها لا تمارس وظيفتها على إنسان ما قبل الحضارة فقط، بل تمارس هذه الوظيفة أيضا على إنسان ما بعد الحضارة، أو –بتعبير مالك بن نبي- مسلوب الحضارة الذي لا يقدر على أداء عمل متحضّر.[1] و الفرق بينهما؛ هو أن إنسان ما قبل الحضارة لديه طاقة حيوية مخزنة، تحتاج إلى توجيه ديني أخلاقي، فقد جاء في الحديث قول النّبي –صلى الله عليه وسلّم-: "خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام، إذا فقهوا". أما إنسان ما بعد الحضارة، فإنه فقد فطرته الأولى و استعداده الّطبيعي لتقبل الفكرة الجديدة الدافعة، كما فقد سمات الرجل المتحضر؛ و بالتالي فإن الفكرة الدينية لا تستطيع أن تدفعه مجددا إلى الحضارة إلا إذا تغير هو بنفسه عن جذوره الأساسية[2]. بمعنى أنه يحتاج إلى شكل من أشكال التطهير و التنقية النفسية كما عند الصوفيين؛ من أجل أن تستعد مجددا لاستقبال الروح الخلاقة و الاستجابة لها. إن الفكرة الدينية ذات الفعالية الدائمة، هي التي تربط الإنسان بالله، ثم إن هذه الصلة هي التي تلد العلاقة الاجتماعية وتقوي دعائمها، وهي بدورها تربط الإنسان بأخيه الإنسان، هي التي تبثّ روح الألفة بين أفراد المجتمع الواحد.[3] و أفضل مثال على ذلك مجتمع المدينة الذي أسّسه -النبي محمّد صلى الله عليه وسلّم-.

فإذا كان إنسان ما قبل الحضارة يسعى بداع من طبيعته للحفاظ على البقاء، فإنّ إنسان الحضارة يسعى بداع من ضميره وروحه لتحقيق التّقدّم الحضاري. [4] والدين وحده هو الذي يستطيع تأسيس مجتمع، وضمان وحدته، وظيفته وضرورته، وهو الذي يصنع الثقافة التي

1- المصدر السابق ص 78.

2- المصدر نفسه والصّفحة نفسها.

3- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص 56.

4- المصدر نفسه ص 71.

تمنح انسجام الأفراد مع المجتمع[1].

لا يستطيع الإنسان أن يبني حضارة دون تأسيس شبكة علاقات اجتماعية متينة، والفكرة الدينية هي الرّوح التي تحيا بها هذه العلاقات، وهي مثلها الأعلى الذي يعزّز خلق أفرادها، ويكيّفهم (الفرد المكيّف) وفق مقتضيات الأهداف العليا المشتركة. [2]

إنّ الدين باختصار "يربط أهداف السّماء بضرورات الأرض (النشاط الاجتماعي المشترك)".[3]

أمّا إذا ما انقلبت القيّم الروحية، فإنّ البناء الاجتماعي كلّه سينهار،[4] ولا شيء يمكنه أن يعوّض المنبع الوحيد للطّاقة الإنسانية المحرّكة، ألا وهو الإيمان. لقد حاولت النّهضة التيمورية أن تجدّد الحضارة الإسلامية، وكذلك فعلت الدولة العثمانية، لكنّهما فشلتا[5]؛ ذلك لأنّ إعادة الانبعاث الحضاري لابدّ أن ينطلق من الروح، التي تجد لها مستقرا في النّفوس. لكن الروح أو الفكرة الدينية حتى تقوم بدورها الحضاري، لابدّ أن يمتدّ إشعاعها من الفرد إلى المجتمع، وإلاّ كان الإيمان بها إيمان رهبان في الصّوامع، إيمان النّزعة الفردية المنحلّة، التي تجعل الإنسان محروما من قوّة الجاذبية، ومن وحدته الاجتماعية[6]؛ وبالتالي يفقده دوره الاجتماعي في إطار العمل الجماعي المشترك، "إنّه –كما يقول روجي غارودي- ليس المهم ما يقوله الإنسان عن إيمانه، بل المهمّ ما فعل ذلك الإيمان به." [7]

والخلاصة أنّ لكل حضارة ثروة أوّلية هي "عدّتها الدائمة" –كما يسميها مالك بن نبي-

---

1-مالك بن نبي، مجالس دمشق ص 109.

2- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص 78.

3- المصدر نفسه ص 80.

4- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصّبور شاهين، دار الفكر للطّباعة والتّوزيع والنّشر – دمشق- سوريا-، الطّبعة الخامسة 1986 ص 30.

5- المصدر نفسه ص 31.

6- المصدر نفسه ص 32.

7- Roger Garaudy, le message de l'Islam, El Borhane, 1992, pour la présente édition 2014.

تتمثّل في الإنسان والتّراب والوقت، وهي ليست منتجات هذه الحضارة، بل إنّ الحضارة تتركّب منها، فهي رأسمال الإنسان الأولي لبنائه الاجتماعي والحضاري، قد يستغني عن منتجات الحضارة مؤقّتا، لكنّه لا يستطيع أن يستغني عن هذه العناصر[1]؛ فالمصباح مثلا هو منتوج حضاري، وهو نتاج أفكار أبدعها الإنسان (العامل الأوّل)، تطوّرت عبر الزّمن (العامل الثّالث)، استخدم فيها مادة أوّلية موجودة في الطّبيعة (العامل الثّاني). وعلى هذا فإنّ مشكلة الحضارة هي مشكلة الإنسان وشروط تكيّفه مع المسار التّاريخي، ومشكلة التّراب وشروط استغلاله في العمل الاجتماعي المشترك، ومشكلة الوقت وكيفية تقديره واستثماره فرديا واجتماعيا[2].

ثمّ إنّ الروح هي التي تركّب بين هذه العناصر، تظهر في شكل عقيدة تبثّ في النّفس، فتغيّر الفرد، وتبعث فيه الطّاقة والدفعة الحيوية للبناء الحضاري. ولكن الحضارة لا ينشئها الفرد وحده، بل ينشئها مجتمع ألّفت بين أفراده قيم روحية وأخلاقية مشتركة، تبثّ في النفوس الشّعور المشترك بالمسؤولية تجاه الآخرين وتجاه المجتمع وتجاه الأمّة ، بحيث يحمل كل فرد في المجتمع رسالة على كاهله لابدّ أن يؤديها تجاه الإنسانية جمعاء[3]. إنّ الروح تحدّد ثقافة جديدة في مستوى الحضارة، ثقافة تقوم على الشعور بالواجب والالتزام به؛ أي على اقتحام العقبة[4](في إشارة لمالك بن نبي إلى الآية القرآنية في سورة البلد).

إنّ تأثير العقيدة على الروح الفردية والروح الاجتماعية، هو الذي يحدث دوافع النّهوض في روح الفرد وروح المجتمع؛ فيكون ذلك وراء كلّ تجديد حضاري، ووراء حركة التاريخ. إنّ الفكرة الدينية هي الكفيلة بإحداث التغيير الحضاري كفاعلية فردية واجتماعية

1- د/ جيلالي بوبكر، الإصلاح والتّجديد لدى محمد إقبال ومالك بن نبي، بين النّظرة الصّوفية والتّفسير العلمي، دار المعرفة 2010 ص 57.

2- المرجع نفسه ص 58.

3- المرجع نفسه ص 59.

4-مالك بن نبي، مجالس دمشق ص 120.

وإنسانية[1]. يقول تعالى: ﴿ إنّ الله لا يغيّر ما بقو م حتّى يغيّروا ما بأنفسهم.﴾ [2]

إنّنا لما نتحدّث عن الفكرة الدينية لا نتحدّث عن مفهوم مجرّد يدرس، بل عن حقيقة واقعية عاملة ومؤثّرة، فالمطلوب ليس العلم بالله بل – كما يقول محمّد إقبال- الاتّصال بالله[3]. ولكن من الضروري أيضا لتحقيق النّهضة الحضارية، امتلاك الوعي الحضاري الذي يميّز بين البناء والتّكديس، وبين الإنتاج والاستهلاك[4]. ثمّ إنّ من مقوّمات البناء الحضاري تحقيق مشروع ثقافي مشترك، يقوم على تأثير عناصر ثلاثة هي: عالم الأشخاص، عالم الأشياء، وعالم الأفكار.

لكن هذه العناصر الثلاثة لا تعمل متفرّقة، بل تتوافق في عمل مشترك، يحدّد صورته النّموذج الإيديولوجي الصّادر عن عالم الأفكار؛ ليتمّ تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء؛ لأجل غاية يحدّدها عالم الأشخاص[5]، وإنّ قيمة هذه العوالم تخضع لصلتنا الشّخصية بها[6]؛ لذلك فإنّ هذه العناصر تستلزم وجود عالم رابع أو عنصر رابع يتمثّل في شبكة العلاقات الاجتماعية؛ من أجل توجيه هذه العناصر، "فكلّ ما يكوّن صلة في نطاق العوالم الثلاث المذكورة أو بينها، هو علاقة مشروطة بوجود ثقافة[7]." إذن لابدّ من توجيه للثّقافة، من خلال توجيه عناصرها، وبالتالي فلابدّ من مركب للثّقافة سواء للأشخاص أو الأفكار أو الأشياء[8]. وعليه فإنّ مشكلة الثقافة هي مشكلة توجيه للأفكار والأشخاص والأشياء، والتّوجيه هو: " قوّة في الأساس، وتوافق في السّير، ووحدة في الهدف، واقتصاد في الجهد والفكر." [9] لكن

1- د/جيلالي بوبكر، الإصلاح والتّجديد ص 60.
2- سورة الرّعد، الآية 11.
3- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ص 155.
4- د/ جيلالي خلاص، الإصلاح والتّجديد ص 62.
5- المرجع نفسه ص 64.
6- مالك بن نبي، مشكلة الثّقافة ص 62.
7- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص 33.
8- مالك بن نبي، مشكلة الثّقافة ص 62.
9- المصدر نفسه ص 67.

أوّل شرط لتحقيق المشروع الثّقافي هو تحقيق الصّلّة بين عالم الأشخاص، وهنا يتدخّل العنصر الدّيني أو الأخلاقي، الذي يكسب الفرد معنى الجماعة، ومعنى الكفاح والتّضحية من أجل الآخرين، من أجل الجماعة، من أجل الفكرة السامية.

لقد استطاع النّبي –صلى الله عليه وسلّم- أن يؤلّف بين قلوب المؤمنين، ويجعلهم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا؛ بل كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى. لقد بثّ في نفوسهم الشعور بالآخرين، الألفة والأخوة؛ حتى بلغ بهم الأمر إلى أن يقتسموا أموالهم مع إخوانهم، وأكثر من ذلك، فإنّ فيهم من مات في سبيل الهدف المشترك، بل كانوا يتنافسون على ذلك. كما بثّ فيهم الشعور بالتّواضع تجاه إخوانهم، وخلق الإيثار. لقد كان مجتمع المدينة في عهد النّبي محمّد –صلى الله عليه وسلّم- وعهد الخليفتين أبي بكر وعمر نموذجا لهذا التّوجيه الثّقافي، و تلك العلاقات الاجتماعية المتينة التي غذّتها الفكرة الدّينية، و المبدأ الأخلاقي الذي تأسّس على تقوية الصّلة بالله لتقوية الصّلة بالنّاس؛ وفي القرآن الكريم إشارة إلى ذلك: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النّار فأنقذكم منها، كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تهتدون.﴾ [1] في الآيتين إشارة إلى الصّلة بين العبد وربّه، والصّلة بين الإنسان وأخيه الذي تربطه به عقيدة واحدة، ومبدأ أخلاقي مشترك هو المركّب والمؤلّف الحقيقي بين عالم الأشخاص: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما الّفت بين قلوبهم، ولكن الله ألّف بينهم.﴾[2] أمّا إن فسدت العلاقة بين عالم الأشخاص، فإنّ ذلك سينعكس سلبا على عالم الأفكار وعالم الأشياء؛ وبالتالي سينهار المجتمع بتمزّق شبكة العلاقات الاجتماعية[3].

1- سورة آل عمران، الآيتان 102- 103.
2- سورة الأنفال، الآية 63.
3- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص 45.

إنّ التّوجيه الثّقافي لا يحتاج فقط إلى المركّب الأخلاقي، بل يحتاج أيضا إلى العنصر الجمالي، المنطق العملي، والتّقنية أو الصّناعة.

❁ التّوجيه الثّقافي ❁

*1- **التّوجيه الأخلاقي**: إنّ مجتمعا يسعى لبناء حضارة، يحتاج إلى مبدأ أخلاقي يجمع بين أفراده، ومن المؤكّد أنّ الإنسان اجتماعي بطبعه، فهو يملك غريزة الحياة في جماعة، ولكنّه يحتاج إلى روح سامية تهذّبها، وتؤلّف بين أفراد المجتمع الواحد، روح كتلك التي بثّها النّبي محمّد –صلى الله عليه وسلم- في نفوس أصحابه، دين يربط الأرض بالسّماء، ويقوّي شبكة العلاقات الاجتماعية؛ وقد مرّ علينا أنّ أصل كلمة "دين" باللاتينية هو الرّبط والجمع.

إنّ كلّ المظاهر الأخلاقية في المجتمعات المتحضّرة تعود إلى أساس ديني روحي، بما في ذلك المظاهر الأخلاقية التي نجدها في المجتمعات الغربية، ويقدم لنا مالك بن نبي مثالا على ذلك؛ دور حضانة الأطفال المنتشرة في الغرب، فإنّ أوّل من أنشأها "القدّيس فانسان ديبول"[1].

ثمّ إنّ التّاريخ يعلّمنا أنّ المبدأ الأخلاقي كان دائما عنصرا موحّدا للشّعوب، "فروح الإسلام هي التي خلقت من عناصر متفرّقة كالأنصار والمهاجرين، أوّل مجتمع موحّد متآخي." [2]

فالدّين وحده، أو المبدأ الأخلاقي هو الذي يحقّق التّلاحم الاجتماعي، وهو وحده من يصنع مجتمعا؛ لأنه يقدّم معنى ومبرّرا للحياة، ويحدّد السّلوك الاجتماعي[3].

ولعلّ أحسن مثال على الأثر الفعّال الذي يتركه المبدأ الأخلاقي في النّفوس (خاصة إذا ارتبط بفكرة غيبية وعقيدة دينية سماوية)، وانعكاس ذلك على السّلوك الاجتماعي "مشكلة الخمر".

1- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 95.

2- المصدر نفسه ص 96.

3- Malek Bennabi, la réalité et le devenir (op) p 62.

لقد طرحت هذه المشكلة أوّل مرّة في تاريخ الإنسانية من طرف القرآن؛ ليجد لها حلا عبر ثلاث مراحل: 1- ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للنّاس، وإثمهما أكبر من نفعهما.** ﴾[1]

2-﴿**لا تقربوا الصّلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون.**﴾[2]

3- ﴿**إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشّيطان، فاجتنبوه لعلّكم تفلحون.** ﴾[3] وقد نجح القرآن في حلّ المشكلة دون أن يضرّ بشبكة العلاقات الاجتماعية[4]؛ فقد امتنع كلّ المسلمين عن شرب الخمر بمجرّد سماع هذه الآية، ويروى أنّهم قاموا بإهراق كلّ ما لديهم من خمر؛ استجابة لنداء الروح والمبدأ الأخلاقي، ولسان حالهم يقول: "انتهينا يا ربّ".

❋كيف نجح الحلّ القرآني لمشكلة الخمر؟

إنّ القرآن لم يحرّم الخمر دفعة واحدة، فقد سبق المنع التّام مرحلتا الإعداد النّفسي، ووضع حدودا للمدمن (تحريم الصّلاة في حالة سكر). ولكن التّاريخ يخبرنا أنّ الولايات المتّحدة الأمريكية –و هي أعظم دولة في العالم المعاصر في حضارتها وقوّتها- قد حاولت منع الخمر، وعبر مراحل؛ وذلك بطرحه للرّأي العام سنة 1918، ثمّ إدخاله في الدّستور، ثمّ جاءت مرحلة الفعل والتنفيذ والإلزام، واستخدام الوسائل الضّرورية لذلك[5]، لكنّها فشلت.

لماذا فشلت، في حين أنّ القرآن نجح؟!

1-الآية 219 من سورة البقرة.

2- الآية 43 من سورة النساء.

3- الآية 90 من سورة المائدة.

4- Malek Bennabi, le phénomène coranique, El-Borhane P 154-155.

5- Ibid, p 156.

لقد نجح القرآن لأنّه ربط المشكلة بالمبدأ الأخلاقي الأبدي، فشرب الخمر شرّ يتناقض مع الأخلاق الإسلامية، كما أنّه يضرّ بالعلاقات الاجتماعية (التي قامت أساسا على هذا المبدأ). أما الولايات المتّحدة فقد ربطت الخمر بمصلحة الفرد العاجلة، وبالتالي فإنّ فكرة التحريم لم تتغلغل في النّفوس.

ثمّ إنّنا لمّا نتحدّث عن المبدأ الأخلاقي، أو المركّب الأخلاقي للثّقافة، لا نقصد المبدأ الأخلاقي النّظري، إنّما نقصد تلك الفكرة التي تؤثّر في النّفوس فتغيّرها، وتلك التي تخلق ديناميكية اجتماعية؛ تؤدي إلى خلق أسلوب حياة اجتماعي جديد، تظهر آثاره في الفعالية السّلوكية للفرد.

❋ 2- التّوجيه الجمالي:

- العنصر الجمالي هو المركّب الثاني للّثقافة، وهو الذي يحدّد أسلوب الحياة في المجتمع، أمّا العنصر الأخلاقي فإنّه يحدّد شكل السّلوك[1]. ويتجسّد كلاهما في العادات والتّقاليد والأعراف الاجتماعية، "فكلّ مجتمع ينتج بذورا أخلاقية وجمالية، نجدها في أعرافه وعاداته". [2]
إنّ السّلوك الأخلاقي والذّوق الجمالي لمجتمع ما يعبّران عن مستوى تحضّر هذا المجتمع، "إنّ الحياة (الاجتماعية) تتّخذ لها اتّجاها عاما ولونا شاملا، يجعلان جميع تفاصيلها مرتبطة بالمبدأ الأخلاقي وبالذّوق الجمالي، وبالعلاقة بينهما." [3] وعليه فإنّ التركيب بين العنصر الأخلاقي والعنصر الجمالي يحدّدان اتّجاه الحضارة: مبدأ أخلاقي+ ذوق جمالي= اتّجاه حضاري[4]. وأيّ خلل في توازنها يؤدي إلى خلل في الحضارة، فهما اللّذان يحدّدان عبقرية

1- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة ص 66.
2- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 107.
3- المصدر نفسه ص 108.
4- المصدر نفسه ص 109.

حضارة معيّنة[1]. ومن مظاهر الذّوق الجمالي في المجتمع المتحضّر، الإحسان في كلّ شيء، في طريقة اللّباس، طريقة المشي، طريقة الكلام "إنّ الله كتب الإحسان في كل شيء." –كما في الحديث النّبوي- ومن مظاهره الرّفق وضدّه العنف، "فما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما كان العنف في شيء إلّا شانه." –حديث نبوي- ويقدم لنا مالك بن نبي مثالا عن غياب الذّوق الجمالي في المجتمعات الإسلامية، وتجلى ذلك مثلا في اللباس –الذي كثيرا ما نعتقد أنّه لا يعبّر عن الذّات – فيقول: "إنّ الطّفل في حالته البالية الرّثة لا يعبّر عن فقره، بل عن تفريطه في حياته، وعن غياب الذّوق الجمالي فيه[2]." -ومصطفى كمال حينما فرض القبّعة لباسا وطنيا للشّعب، إنّما أراد تغيير نفسه لا تغيير ملبسه[3]. وذلك بتغيير ذوقه الجمالي؛ لأنّ "الإطار الحضاري بكلّ محتوياته متّصل بذوق الجمال... بل إنّ الجمال هو إطار كلّ حضارة... إنّه وجه الوطن في العالم"[4].

إنّ الجمال يوحي بالأفكار، والأفكار المنسجمة تتجسّد في أعمال منسجمة؛ فيجد الفرد نزوعا إلى الإحسان في العمل والكريم من العادات[5].

إنّ للمظهر الجمالي دخلا في تغيير نفسية الإنسان، وله تأثير على كل حياتنا وسلوكاتنا، حتى طريقة الضّحك، العطاس، وتسريحة الشّعر، وكل ما ينافي الذّوق الجمالي يثير الاشمئزاز، حتى مظاهر الفقر في المجتمع لابدّ أن تعلوها مسحة جمالية، إذ هناك "فرق بين طفل وسخ وطفل فقير له كرامة"[6].

ولقد عني الإسلام بالجمال أشدّ العناية " فالله جميل يحبّ الجمال" كما قال الرسول محمّد – صلى الله عليه وسلّم-، وفي القرآن حديث عن القيمة الجمالية للأنعام، حيث يقول الله تعالى:

1- المصدر السابق ص 110.
2- المصدر نفسه ص 99.
3- المصدر نفسه والصفحة نفسها.
4- المصدر نفسه ص 101.
5- مالك بن نبي، مشكلة الثّقافة ص 82.
6-المصدر نفسه ص 84.

﴿**ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون.**﴾[1] لكن الجمال في الإسلام ارتبط دائما بالمبدأ الأخلاقي وتوجيهاته، فالمرأة - مثلا- ملهمة للجمال والأخلاق معا، وفي الحديث الشريف: " حبّب إليّ من دنياكم النّساء والطّيّب، وجعلت قرّة عيني في الصّلاة." فقد ربط الرّسول محمّد العنصر الجمالي بالعنصر الأخلاقي والروحي؛ ولذلك فإنّ حجاب المرأة المسلمة دليل على عفّتها، وصون لجمالها، و تعبير عن أنوثتها، وتطبيق لمبدأ أخلاقي و عقيدة تمكّنت في النّفوس. أمّا في الغرب فإنّ العنصر الجمالي منفصل عن العنصر الأخلاقي، - بمفهومه الغيبي-، "فالمرأة في الغرب لا تكشف عن أنوثتها –اليوم- بل عن عورة أنوثتها" [2]، مع أنها كانت مثالا للرّقة والأدب والاحترام والجمال بردائها الساتر.

إنّ الجمال يعني الانسجام في كلّ الأشياء؛ في الأفكار، في الأشخاص، في السلوك، وحتى في الأصوات والرّوائح، وكلّ مظاهره هي في الحقيقة محاكاة لما في الكون من جمال، يقول الله تعالى: ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين.**﴾[3]

لابدّ أن نرى الجمال مجسّدا في حدائقنا العامة، وفي مساحاتنا الخضراء، وفي شوارعنا وأزقّتنا، وفي مساكننا، وعلى لباس أطفالنا وبناتنا[4].

3 *<u>التّوجيه العملي</u>:

إنّ المنطق العملي أو البراغماتي يعني ربط العمل بالوسائل والمقاصد، فلا يكفي وجود العقل المجرّد في حياتنا، بل لابدّ من العقل العملي الذي يتكوّن من الإرادة والانتباه؛ بمعنى:

1- سورة النحل الآية 6.

2-مالك بن نبي، المصدر السابق ص 127.

3- سورة الملك الآية 05.

4- أحمد بناسي، المدخل إلى فكر مالك بن نبي، طبعة بن عميرات 2014 ص 88.

ربط العمل بهدفه، والسياسة بوسائلها، والثقافة بمثلها، والفكرة وتحقّقها في الواقع[1].
إنّ المنطق العملي هو الذي يجعلنا نفكّر لنعمل، نتعلّم لنجسّد ما تعلّمناه عمليا في الواقع، فالعلم الذي لا ينبني عليه عمل لا فائدة منه – كما يقول علماء الأصول- والله تعالى يقول في سورة العصر: ﴿إلّا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصّبر. ﴾
فلا ينفع أن نتكلّم بالقرآن ولا نعمل به، وليس المهمّ ما نقوله عن عقيدتنا، ولكن المهم أن ينسجم سلوكنا مع مبادئنا؛ أي أن تتجسّد هذه العقيدة في شكل سلوك اجتماعي إيجابي وفعّال، سلوك حضاري بمعنى الكلمة.
إنّ السلوك الفعّال يتجسّد - مثلا- في مجال الصّناعة -كما عند المجتمعات الغربية المتقدّمة– (في التيلورية) حيث الاقتصاد في الجهد والوقت، والكفاءة والإتقان في الأداء، والكثرة والنّوعية في الإنتاج[2]، بمعنى استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معيّنة[3].
لا يجب أن ننظر إلى البراغماتية من جانبها السّلبي، الذي يعني فيما يعنيه النّجاح، والمنفعة؛ فلا نقول أنّ الفكرة الصّادقة هي الفكرة الناجحة أو النافعة، ولكن نقول أنّ الفكرة الصادقة لأنّها صادقة لابدّ أن تتجسّد عمليا، ولابدّ أن تنجح وإلّا فإنّ المشكلة تكمن في نقص فعاليتنا، لا في الفكرة ذاتها؛ "إنّ المجتمع الإسلامي يتكلّم تبعا لمبادئ القرآن، ولا يعيش وفق مبادئه لغياب المنطق العملي[4]،" وفي القرآن الكريم: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ❁ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون[5].**﴾
إنّ توجيه العمل معناه أن تصبّ جهود أفراد المجتمع الواحد في اتّجاه واحد، و بالفعالية المطلوبة، مع التّخطيط المسبق، وتحديد الأهداف بدقّة وفق مقتضيات الظّروف والوسائل

1- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 102- 103.
2-Malek Bennabi, la réalité et le devenir (op) p 66.
3- مالك بن نبي، مشكلة الثّقافة ص 85.
4- المصدر نفسه ص 87.
5- الآية 2 -3 من سورة الصف.

المتاحة؛ ولذلك لابدّ أن نربط هذا العنصر بالدّيناميكية الاجتماعية، وبالعنصرين السّابقين، فلن ننجح في توجيه المنطق العملي إذا لم ننجح في التوجيه الأخلاقي والجمالي. وعليه فإنّ مالك بن نبي يربط المنطق العملي بالواجب الأخلاقي، فنراه مثلا ينتقد الحركة الوطنية، التي تستهدف أهدافا سامية دون أن ترسم خطّتها، ودون أن تحدّد وسائلها "فأصبحت تتطوّر في جوّ من الفوضى لا يصلح إلّا لمن يعمل من أجل مصلحته[1]." "ولو تطوّع بعض الشّبان لتنظيف مقبرة المسلمين –التي كانت في حالة إهمال قياسا بغيرها- لتبيّن أنّ السياسة الحقيقية التي تغيّر، ليست في المطالبة بحق، ولكنّها في القيام بالواجب[2]." إنّ الشّعوب التي استولى عليها مرض الكلام، والتّشدّق، والتّفيهق، والتّنطع في الكلام دون غاية أو هدف إلّا المتعة، أو حب الظّهور، أو المراء، هي شعوب راكدة، متخلّفة بلا ريب؛ لأنّ الحركة تعني العمل لا الكلام.

❋4-التّوجيه الفني أو الصّناعة:

وهو ما نطلق عليه اسم " التّقنية"، ومعناها تعبئة كلّ أفراد المجتمع الواحد، ومن خلال مهنهم، سواء كانوا عمالا، أو حرفيين، أو تقنيين، أو أطباء، أو مهندسين، أو مؤلّفين، وتوجيههم نحو هدف واحد مشترك[3]. فكلّ حرفة صناعة، حتى الرّعي، وبالتالي فكلّ حرفة تحتاج إلى تقنية، وكفاءة، وقدرة، ومهارة؛ ويكفي لتأكيد ذلك أن نشير إلى وجود مدرسة خاصّة في فرنسا لتعلّم تقنيات وفنيّات الرّعي. إنّ التّقنية هي وسيلة للحفاظ على كيان المجتمع

1- مالك بن نبي، مذكّرات شاهد القرن ص 276.
2- المصدر نفسه ص 389.
3- Malek Bennabi, la réalité et le devenir, p 66.

واستمراره[1]، فهي تحتاج إلى اهتمام أيّ مجتمع متحضّر، وإلى ترقيتها، وإلى فتح مدارس لتكوين القيادات الفنية ذات المهارة، شرط أن نربطها دائما باتّجاه المجتمع (الفكرة الأخلاقية والذّوق الجمالي)؛ بمعنى أنّ هذه القيادة الفنية لابدّ أن تحمل رسالة. [2]

وسواء تعلّق الأمر بالتّوجيه العملي أو التّوجيه الفني، فإنّ ذلك يحتاج –خاصة في المجتمعات النّاشئة- إلى التّربية، يقول مالك بن نبي: "إنّ الشّيء الذي يهمنا في مجتمع ناشئ هو النّاحية التربوية في عملنا، لا الناحية الكسبية... إنّ توجيه العمل في مرحلة التّكوين الاجتماعي عامّة، يعني سير الجهود الجماعية في اتّجاه واحد؛ بغية تغيير وضع الإنسان."[3]

وإضافة إلى توجيه الثّقافة، يتحدّث مالك بن نبي عن توجيه رأس المال، باعتباره آلة اجتماعية تنهض بالتّقدّم، لا آلة سياسية في يد الرّأسماليين المحتكرين للثّروة، لوسائل الإنتاج، ولفائض القيمة –كما ترى الماركسية- [4] فلابدّ لرأس المال أن ينفصل عن صاحبه، إنّه قوّة مجرّدة، ومال متحرّك، ووسيلة في يد المجتمع؛ لتحقيق أهدافه المشتركة[5].

إذن فليس العبرة في تكديس الثّروة، بل في تحريك المال وتنشيطه، في استثماره فيما يعود بالخير للأمة، وفق ما تسمح به الوسائل، ووفق ما ينسجم مع الأهداف العامة؛ بحيث تخلّف كل قطعة مالية نشاطا وعملا، ثمّ ثمرة وإنتاجا[6].

إنّ المشكلة لا تكمن في الوسائل، ولكن في توجيهها وحسن استعمالها[7]. ولابدّ من اعتبار الوسائل المتاحة، وفق المعايير الاقتصادية الداخلية[8]. لابدّ من الاستثمار في العمل أيضا (أهمّ

1- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة ص 88.
2- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 105.
3- المصدر نفسه ص 114-115.
4- المصدر نفسه ص 118.
5- المصدر نفسه ص 119.
6- المصدر نفسه ص 120.
7- Malek Bennabi, Articles de presse (1964- 1968), Edition El Borhane, 2014 p 103.
8- Ibid p 109.

مصدر للثّروة)، ولابدّ أن تشارك كلّ السّواعد القادرة على العمل في الانطلاقة الاقتصادية، فالمجتمع الذي يتطوّر انطلاقا من نموذج استثمار اجتماعي ليس فيه سواعد لا فائدة منه[1]؛ وبذلك يتجسّد الهدف الاقتصادي الأهمّ للحضارة وهو: "كلّ الأفواه لابدّ أن تأكل، وكلّ السّواعد لابدّ أن تعمل" .

« Toutes les bouches doivent être nourries, et tout les bras doivent travailler »

كما أنّ التوجيه الاقتصادي لابدّ أن يرتبط هو الآخر بالمبدأ الأخلاقي، فليست الغاية من التّخطيط الاقتصادي وتوجيه رأس المال مادية بحتة، بل أخلاقية روحية بالدّرجة الأولى (خصوصا في الإسلام)؛ فالنهضة الاقتصادية لا بد أن ترتبط بالنهضة الثقافية، أي بمركبات الثقافة التي ذكرناها آنفا؛ ذلك لأن الاقتصاد ما هو إلا الجانب المادي للحضارة، و يمثل إمكانية الحضارة، و بالتالي فمن الضروري أن نربطه بالشروط النفسية للحضارة، أي بإرادة الحضارة[2].

فقد تنطلق حضارة من لا شيء من جهة الإمكانيات الحضارية، ولكن بإرادة حضارية قوية (الحضارة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم والخلفاء الراشدين –ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية)[3].

إنّ ربط الاقتصاد بالثقافة، و بالمبدأ الأخلاقي على وجه الخصوص، هو الشرط الضروري لكل حركية اقتصادية، يظهر ذلك –متلا- في فريضة الزكاة في الإسلام،فهي مرتبطة بالفكرة الدينية، ويتجلى ذلك أيضا في تقديس الإسلام للعمل "فالعمل عبادة " كما في الحديث

1- Ibid p 114.

2- Malek bennabi, le musulman dans le monde de l’économie, traduit de l’arabe par Nour-Eddine Khendoudi, préface de Nour-Eddine Boukrouh, Alem et Afkar- Alger- 2005, P 111.

3- Ibid p 112.

النّبوي، وفي النهي عن اكتناز المال دون استثماره في الصالح العام، وفي اعتباره وديعة و أمانة لا بد أن تؤخذ بحقها، و تصرف في حقها، و في تحريم البخل من جهة و التبذير من جهة أخرى، و في الدعوة إلى الصدقة، و تشجيع التجارة الحلال، و تحريم الربا و الغش و الاحتكار.

إذن لا بد من أخلقة الاقتصاد، و تعويض الاستثمار المالي بالاستثمار الاجتماعي[1] . و لذلك انتقد مالك بن نبي "كارل ماركس" الذي اعتبر رأس المال أداة سياسية، طبعا لأن ماركس تناول الموضوع ضمن أوضاع المجتمع الرأسمالي الغربي[2]، حيث دكتاتورية الطبقة البرجوازية، التي سلبت العامل ثمار عمله، و استولت على وسائل الإنتاج و على فائض القيمة، وجعلته مغتربا أمام السّلعة التي ينتجها هو. ولكن النّظام الاقتصادي الاشتراكي هو الآخر حوّل رأس المال إلى أداة في يد الدولة والحزب الاشتراكي، حيث مارسا على العامل دكتاتورية من نوع آخر، فمازال العامل وسيلة للإنتاج، مازال مغتربا، ومستلبا. على كلّ فإنّ كلا النّظامين يفصلان المبدأ الاقتصادي (الإنتاج) عن المبدأ الأخلاقي. والنتيجة التي يمكن استخلاصها ممّا سبق، أنّ الحضارة ليست عملا فوضويا، ولا أشياء متكدّسة، ولا أفكارا مشتّتة، ولا هي مرتبطة بعنصر منفصل عن باقي العناصر، ولا هي مرتبطة بشخص بعينه، ولا بشيء بمفرده؛ وفي هذا يقول مالك بن نبي: " لا يجوز لنا أن يظلّ سيرنا نحو الحضارة فوضويا، يستغلّه الرّجل الوحيد، أو يضلّله الشيء الوحيد... بل علميا عقليا... الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفّقة، ولا مظاهر خلّابة، ولا الشيء الوحيد.....

1- Ibid p 144.

2- د/ جيلالي بوبكر، الإصلاح والتّجديد ص 65.

بل جوهر ينظّم أشياءها وأفكارها وروحها ومظهرها[1]"، إنّها تركيب منسجم بين عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء، وتركيب منسجم بين التّوجيه الأخلاقي والتّوجيه الجمالي والتّوجيه العملي والتّوجيه الفني، إضافة إلى التّوجيه الاقتصادي؛ كلّها في اتّجاه واحد، ونحو غاية واحدة، في عمل مشترك لأفراد مكيّفين داخل مجتمع واحد تحرّكهم فكرة واحدة، "فالمجتمع - المتحضّر- ليس مجرّد مجموعة من الأفراد، بل تنظيم معيّن ذو طابع إنساني، يتمّ طبقا لنظام معيّن (مع العلم بالهدف) [2]."

إنّ الحضارة هي حركة للمجموع + إنتاج لأسبابها + تحديد لاتّجاهها، لكن الحركة تحتاج إلى مقدرة خلّاقة؛ أي إلى فكرة قويّة تولّد إرادة حضارية، حتى في ضوء قلّة الإمكانيات.

1- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 164.
2- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص 17.

ثانيا:

❋الدّورة الحضارية❋

يرى مالك بن نبي أنّ الحضارات تتشابه، ولكنّها لا تتماثل[1]، تتشابه في كونها نتاج دفعة خلّاقة مصدرها روحي، و في كونها تهدف إلى ترقية الإنسان وإسعاده، كما تتشابه في أنّ لها عمرا زمنيا، إن أتمّته أصابها ما يصيب من أتمّ أجله من موت واندثار. ولكنّها تتميّز عن بعضها البعض في خصائصها ومظاهرها وألوانها، فليس للحضارة مكان معيّن تستقرّ فيه إلى الأبد "فإذا بزغت في أرض ما، وأتمّت دورتها هاجرت إلى بلد آخر[2]." لكنّها قبل أن تزول ترسل إشعاعها الأخير، وكان آخر إشعاع أرسلته الحضارة الإسلامية قبل زوالها، هو فكر بن خلدون، إنّ لها مجالا جغرافيا، فتنتقل من مجال إلى آخر[3].

إنّ الحضارات تسقط وتنهار، وهناك علامات تدلّ على إشرافها على الأفول "ومنذ قرون أراد عملاق من عمالقة الفكر الإسلامي، أن يطلق في الضّمير الإسلامي صرخة الخطر، أن يطلق أبواق النّذير، وهو ابن خلدون، لما كان يشاهد حوله من اضطرابات سياسية... ورأى بوجه خاص التّدهور الاجتماعي، والأشياء التي تنذر بأنّ الخطر ليس بخطر يهدّد الكيان السّياسي، ولكن يهدّد الكيان الاجتماعي، الكيان الحضاري نفسه[4]." لقد كان لملك إسبانيا فيليب الثاني سفير بمراكش، فوفاه بتقرير جاء فيه: " وكأنّ العناية الإلهية تهيّئ الأشياء لسيّدي"، وكأنّه –ومن خلال ما لاحظه من انحطاط حضاري- يهيّئ الجوّ للاستعمار؛ لأنّ الظّروف تبشّره بسقوط الحضارة هناك[5].

وهكذا الحال قبيل سقوط بغداد على يد المغول، وقبيل سقوط دولة الموحّدين على يد

1- أحمد بناسي، المدخل إلى فكر مالك بن نبي ص 41.
2- المرجع نفسه والصّفحة نفسها.
3-مالك بن نبي، مجالس دمشق ص 78-79.
4- مالك بن نبي،مشكلة الحضارة (محاضرة)، من كتاب د/ مولود عويمر ص 169.
5- المصدر نفسه ص 172- 173.

المسيحيين، يقول تعالى: ﴿ *و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا* ﴾. [1]

إنّ الحضارات دول، يقول الله تعالى: ﴿ **و تلك الأيام نداولها بين النّاس.**﴾[2] ويقول أيضا: ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل.**﴾ [3] إنّ "للحضارات كلّها حظّها وعمرها ما يكفي من القرون لأداء وظيفتها ورسالتها في العالم[4]."

وإذن فماهي المراحل التي تمرّ بها الحضارة في دورتها؟

❋***مراحل الدّورة الحضارية*** ❋

إنّ كلّ حضارة تمرّ بثلاث مراحل: - مرحلة الروح - مرحلة العقل - ومرحلة الغريزة.

1- **مرحلة الرّوح**: وفيها تتجلى الفكرة الدينية، كفكرة خلّاقة دافعة؛ فتحيي الضمائر الميّتة، وتصنع البطولات " فلو سألنا أحد الأبطال عن بواعث كفاحه... فإنّه يعلم أنّ جهوده تذهب هباء، غير أنّ دوافعه الدينية وشرفه الإنساني قد حتّما عليه ذلك[5]."

إنّ الفكرة الدينية هي مبدأ انبعاث كلّ حضارة، حتّى لو كانت وثنية، يقول مالك بن نبي: "تبدأ الحلقة الأولى للحضارة بظهور فكرة دينية، ثمّ يبدأ أفولها بتغلّب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تفقد الرّوح ثمّ العقل[6]."

وقد سادت الروح في الحضارة الإسلامية في الفترة الأولى لها "وظلّت هي العامل النّفسي

1-سورة الإسراء،الآية 16.
2- سورة آل عمران، الآية 140.
3- سورة الرّوم، الآية 42.
4- مالك بن نبي، مشكلة الحضارة ص 186.
5- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 21.
6- المصدر نفسه ص 59.

الرّئيسي إلى غاية واقعة صفين عام 38هـ، وهو تاريخ أوّل انفصال –في الإسلام- بين مقتضيات الأرض ومبادئ السّماء، وبداية أفول الرّوح وظهور العقل[1]؛ ولقد أشار النبي- صلى الله عليه وسلّم- إلى ذلك حين ذكر أنّ عرى الإسلام ستنقض عروة عروة، وأوّل ما سينقض منها هو الحكم؛ أي أنّ أوّل انفصال للأرض عن السماء في الحضارة الإسلامية كان في السياسة، حين حوّل معاوية ابن أبي سفيان نظام الحكم من خلافة راشدة (ديمقراطية) إلى ملك عضود مستبد. كما أشار النّبي – صلى الله عليه وسلّم – إلى هذا الأفول التّدريجي للرّوح حين قال: " خير القرون قرني، ثمّ الذي يليه، ثمّ الّذي يليه."

إنّ مظاهر المرحلة الأولى للحضارة في المجتمع الإسلامي، هو أنّها وحّدت بين قبائل متناثرة ومتناحرة، وأسّست لمجتمع جديد على أسس جديدة ومقوّمات متينة، بعثت فيه نور الحضارة، بعد أن كان منعزلا، أميّا، يعيش على الفطرة؛ لقد أخرجته من الطّبيعة إلى الحضارة. ثمّ "إنّ المجتمع الإسلامي لم يكتف بهذه الخطوة... بل اتّجهت أنظاره إلى خارج حدوده، فلم يكد يمض وقت قصير على بزوغ فجر الإسلام وانتشار تعاليمه؛ حتى تحوّل هذا المجتمع إلى أستاذ للأمم وشعوب سبقته حضاريا بعشرات القرون[2]."

ولكن من الذي صنع هذه الوثبة؟ إنّهم أناس بسطاء، بدو، فقراء، لكنّهم آمنوا بفكرة تجاوزت أفق الأرض؛ فهدموا الأصنام في عقولهم قبل أن يهدموها في الواقع، حيث أنّ الفكرة حينما تبزغ يغرب الصّنم، فتآخوا، تناصروا، تآلفوا، تحدّوا الأعداء وقساوتهم، وتحكّموا في غرائزهم؛ لأنّ الرّوح غلبت، وصار الفرد يحتكم لقانونها؛ تجلى ذلك في شخص بلال وهو ينطق بكلمات الرّوح: أحد، أحد، غير مبال بالعذاب المسلّط عليه، وتجلى ذلك أيضا في المرأة الغامدية التي استجابت لغريزتها فزنت، لكن صوت الرّوح تجلّى، فطلبت من النّبي - صلى الله عليه وسلّم – أن يطهّرها من ذنبها، دون أن يجبرها على ذلك أحد، سوى الخوف

1- المصدر نفسه ص 58.

2-أحمد بناسي، المدخل إلى فكر مالك بن نبي ص 46.

من الله، والاستجابة لنداء ضميرها الحي[1].

2-مرحلة العقل: لقد استطاع المجتمع الإسلامي أن ينشر حضارته بفضل الفتوحات الإسلامية، التي عرفت أوجّ انتصاراتها في عهد الخليفة الرّاشد عمر بن الخطاب. ولقد عرف عهد أبي بكر وعهد عمر، ومرحلة من عهد عثمان الاستقرار السياسي والاجتماعي، والاستقامة الأخلاقية؛ نظرا لطغيان الجانب الرّوحي على الجانب المادي، فقد كان انشغال المسلمين بالآخرة أكثر من انشغالهم بالدّنيا، و كان الخليفة عمر مثلهم الأعلى؛ في زهده، وورعه، وخشيته لله. ولمّا ذاق المسلمون طعم الحياة المترفّهة (خصوصا بعد فتح العراق والشّام ومصر)، بدأ صوت الرّوح يخفت شيئا فشيئا، وبدأ صوت الغريزة يعلو مرّة أخرى شيئا فشيئا؛ ولقد تجلى ذلك أوّل ما تجلى في المجال السياسي، حيث بدأ المسلمون يتصارعون على الحكم، ويطلبون الدّنيا – ولو على حساب الدين والمبدأ الأخلاقي- فكانت واقعة صفين هي المنعرج الحاسم، يقول مالك بن نبي: " بعد الروح يأتي العقل، لكن العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز... فتبدأ تتحرّر شيئا فشيئا... فتنقص الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية... وتستعيد الطّبيعة غلبتها على الفرد شيئا فشيئا." [2]

لقد كانت واقعة صفين من كوارث التّاريخ الإسلامي، يقول مالك بن نبي: "من كوارث التّاريخ واقعة صفين، التي أخرجت المسلم من جوّ المدينة المشحون بهدي الروح، وبواعث التّقدّم، إلى جوّ دمشق حيث مظاهر التّرف وفتور الإيمان." [3]

وتتميّز مرحلة العقل بأمرين:

* أنّ خطّ الحضارة فيه صار أفقيا وليس عموديا (كما كان في المرحلة الأولى).

*أنّ الفكرة الدّينية لم تعد هي التي تحكم بل العقل[4].

1-مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 75- 76.

2- المصدر نفسه ص 78.

3- المصدر نفسه ص 53.

4- أحمد بناسي، المدخل إلى فكر مالك بن نبي ص 49- 50.

و ليس معنى هذا أنّ الفكرة الدينية أفلت، ولكنّها بدأت تفقد بريقها وحيويّتها وسيطرتها على النّفوس، وبدأت تفقد وظيفتها الاجتماعية.

ولقد استمرّت مرحلة العقل في الحضارة الإسلامية زهاء خمسة قرون –للتاريخ- تميّزت بازدهار كبير في مختلف مجالات الحضارة، وبنشأة عواصم حضارية عالمية امتدّ نورها وبريقها إلى العالم كلّه، وكان لها الفضل في انبعاث الحضارة الغربية من جديد؛ ومن أشهر هذه العواصم: بغداد، قرطبة، دمشق، بخارى، سمرقند، بجاية، وغيرها كثير. وفي هذه المرحلة تجلى المنتوج الثقافي للحضارة الإسلامية، وإن بدأت تفقد عناصر هذه الثقافة ومركّباتها الأساسية.

❋لماذا قلنا أنّ الحضارة الإسلامية بدأت تفقد مركّباتها الثقافية، ومركّب الحضارة الجوهري (الرّوح)؟

-لأنّ هذا الازدهار رافقته أمراض اجتماعية خطيرة، بدأت تنخر جسد الحضارة، وبدأت علامات احتضار الروح تظهر على هذا الجسد؛ فلم يعد هناك عمل اجتماعي مشترك، وفقد المبدأ الأخلاقي قدرته على التّحكّم في سلوك الأفراد، وتوجيهه الوجهة الاجتماعية المطلوبة، وأخذ المجتمع يفقد أسلوب الحياة الذي ربّى عليه الرّسول أصحابه، ونقصت الفعالية الاجتماعية، وبدأت شبكة العلاقات الاجتماعية تتفكّك، والغرائز تتحرّر من عقالها؛ فكانت هذه العلامات تمهيدا للدّخول إلى المرحلة الثالثة.

3- **مرحلة الغريزة**: حينما تبدأ الفكرة الدينية في الأفول تترك المجال للعقل، لكن العقل أيضا يبدأ في الأفول فتنطلق الغرائز، ويعود الإنسان مرّة أخرى إلى الحياة البدائية[1]، فلا ضمير يشعر، ولا عقل يفكّر، إنّها المرحلة التي تطغى فيها الشّهوات، والمصالح الفردية، والأنانية الذاتية، وزوال كلّ مقوّمات مجتمع متحضّر، وتفكّك العلاقات الاجتماعية، وغياب الشّعور

1- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 59.

بالمسؤولية، وعدم الالتزام بالواجبات، وانتشار الفتن، والآفات الاجتماعية، والاستبداد السّياسي، وكثرة المطالبة بالحقوق دون أداء الواجبات، وقلب القيم؛ حيث يصدّق الكاذب، ويكذّب الصّادق، ويؤتمن الخائن، ويخوّن الأمين، وينطق الرويبضة السّفيه، فيتحدّث في أمر العامّة، ويرفع اللّئيم، ويحطّ الكريم. هذه بعض سّمات مجتمع ما بعد الموحدين، أو إنسان ما بعد الحضارة، المسلوب الحضارة.

في هذه المرحلة تغيب الروح ويغيب العقل كليا عن دورهما الاجتماعي والحضاري، وتتحرّر الغرائز كليا، وهنا تبدأ مرحلة الانحطاط، ومن مظاهره: الفقر، الجهل، عقم في إنتاج الأفكار وفي إنتاج الأشياء، تبعية للآخر، قابلية للاستعمار وقابلية للاستبداد، تكديس للأشياء والأفكار والأشخاص؛ وفي هذه المرحلة يصبح المجتمع أشبه بالطّفل في تعلّقه بالأشياء التي لا يدرك معانيها ولا كيف صنعت، أو في تعلّقه بالأشخاص، وارتباط حياته بهم، حيث لم يعد يحسن أن يفعل شيئا، وحتى عالم أفكاره صار منفصلا عن العمل. صار عالم الأفكار في مجتمع ما بعد الموحّدين يدور حول عالم الأشياء، فهو مثقل بالأشياء لكنّها خامدة وخالية من المعنى[1]؛ فغابت الفعالية، وسادت الفوضى الفكرية، وطغت الأشياء والأشخاص على الأفكار، وصار تقدير الأمور ومواجهة المشكلات كميّا؛ فوقع في الشيئية (حتى في المجال الفكري) [2]. وبهذا يكون مجتمع ما بعد الموحّدين قد هيّأ التربة الخصبة للاستعمار في عقله ونفسه[3]؛ لنجد أنفسنا أمام إنسان مسلوب الحضارة، فقد فقدت كلّ مبرّراتها، وهذا يعني أنّها ستموت؛ لأنّ "الحضارات لا تموت إلّا حينما تفقد مبرّراتها."[4]

1- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة د/ بسّام بركة و د/ أحمد شعبو، دار الفكر الجزائر، الطّبعة الأولى 1992 (بإذن من دار الفكر دمشق) ص 34.

2- المصدر نفسه ص 80.

3-مالك بن نبي، مجالس دمشق ص 54.

4-المصدر نفسه ص 86.

وفيما يلي مخطّط للدورة الحضارية، كما رسمه لنا مالك بن نبي (الحضارة الإسلامية نموذجا):

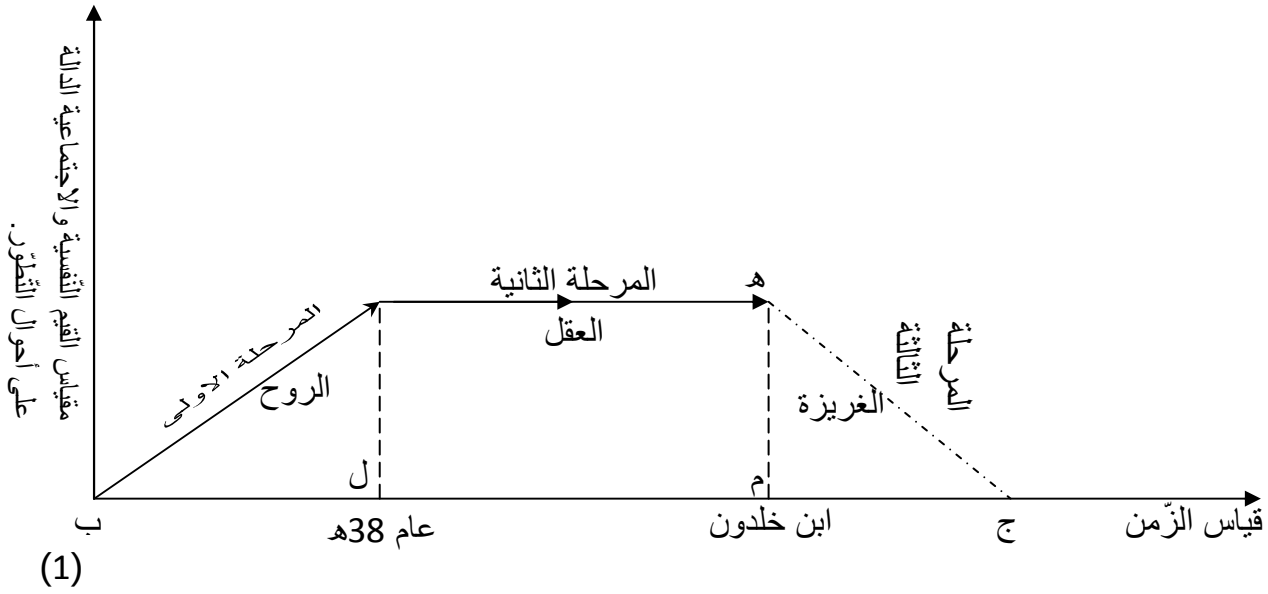

(1)

إنّ أيّة حضارة تقع بين حدي الميلاد والأفول، والمنحنى البياني يبدأ من الميلاد في خطّ تصاعدي، وحينما يصل إلى الأوجّ (قمّة العطاء الحضاري) حيث الإنتاج الحضاري في جميع المجالات، أي طور "انتشار الحضارة وتوسّعها" [2]، يستقرّ مدّة من الزّمن، ثمّ يبدأ في الأفول في طور نازل.

إنّنا لما نتحدّث عن الحضارة الإسلامية، فإنّه يتدخّل في إطرادها عاملان هما: *الفكرة الإسلامية مصدر انبعاثها، و*الإنسان المسلم الذي يعتبر سندها المحسوس [3]، وبين العاملين علاقة عضوية.

لقد تولّت الفكرة الدينية إخضاع غرائز الإنسان الطّبيعي في عملية شرطية، لكنّه ليس

1- مالك بن نبي، شروط النهضة ص 74.
2- المصدر نفسه ص 73.
3- المصدر نفسه ص 74.

إخضاع قمع، بل إخضاع ضبط وتهذيب وتوجيه وفق قانون جديد هو قانون الروح.[1] ولمّا تصل الحضارة إلى الأوجّ تضعف سلطة الروح؛ ويبدأ الفرد يتحرّر من الناحية الأخلاقية؛ ولو أمكن مراقبة الظّروف النّفسية لهذه الحضارة بدقّة، لأمكن أن نلاحظ انخفاضا في مستوى الأخلاق الاجتماعية[2].

لكن الغريزة التي كبحت الروح جماحها لم تتحرّر دفعة واحدة، بل شيئا فشيئا؛ ليبلغ التّحرّر تمامه في الطّور الثالث[3]، وبالتالي تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدّينية. ولقد تأثّر مالك بن نبي في تفسيره للحضارة بالعلّامة بن خلدون، الذي وصفه بالعبقري، "لكن عبقريته لم تتجاوز حدود الدولة إلى الحضارة"[4]؛ ومع ذلك فإنّ ابن خلدون هو أوّل من تحدّث عن قانون الدّورة التّاريخية، وهو أوّل من اكتشف منطق التّاريخ وقام بصياغته، وأول من فسّر التّاريخ تفسيرا عليّا علميا.

كما كان لنظرية هرمان دي كسرلنج، التي تضمنها كتابه (البحث التحليلي لأوربا)، تأثير كبير في بناء نظريته، و التي خلاصتها أن الميلاد المسيحي للحضارة المسيحية متوافق مع ظهور روح خلقي، حيث ربط بين بعث الدين وظهور الحضارة، فكان عهد شارلمان هو عهد البحث؛ ولمّا بدأت النهضة الأوربية خرجت حضارة أوربا من مرحلة السمو الروحي إلى مرحلة التوسّع العقلي[5]. و قد كان كسرلنج يقصد بالروح ذلك الشعور القوي في الإنسان، الذي تصدر منه إبداعاته و قدراته، ومصدره الفكرة المسيحية[6].

و قد استعان مالك بن نبي بهذه النظرية لتأييد نظريته، و إن كان كسرلنج لم يذكر بوضوح المراحل الثلاث للحضارة المسيحية، فإنه قد أشار إليها بكل وضوح كتّاب آخرون، "إذ

1- المصدر السابق ص 75.
2-المصدر نفسه ص 74.
3- المصدر نفسه ص 75.
4- أحمد بناسي، المدخل إلى فكر مالك بن نبي ص 44.
5- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 62.
6- المصدر نفسه ص 63.

سادهم شعور بفناء المدنية الأوربية مثل (أوزفولد اشبنجلر) في كتابه (أفول الغرب)[1]" .
و قبل أن يكتمل حديثنا عن الدورة الحضارية، نشير إلى أن مالك بن نبي يؤكد على أن الحضارة "تولد مرتين؛ أمّا **الأولى**: فميلاد الفكرة الدينية، و أما **الثانية**: فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس، أي دخولها في أحداث التاريخ."[2]

والنّتيجة أنّ أيّة حضارة تنبعث مع انبعاث الروح، وهذه الروح هي التي توجّه الطّاقة الحيويّة (اللّيبدو بتعبير فرويد)، في خدمة أهدافها السّامية؛ ثمّ تبدأ هذه الطّاقة في الانعتاق من قبضة الرّوح شيئا فشيئا، فتظهر بوادر السّقوط، ثمّ تغيب شمس الحضارة تماما مع اختفاء آخر ومضة للرّوح.

1- المصدر السابق ص 64.
2- المصدر نفسه ص 61.

ثالثا:

❁دور الفكرة الدينية في البناء الحضاري عند مالك بن نبي❁

إنّ مهمة الدين لا تكمن في إنشاء الحضارة فقط ، ولا تتوقف عند الدفعة الحضارية، بل إنّ تأثيره يتجاوز ذلك إلى البناء و التشييد ، و يستمر حتى أفول هذه الحضارة، "وعدة الحضارة الخالدة هي الإنسان الذي يتحرك في الحضارة بدافع الروح الدينية، فينتج الأفكار والأشياء". [1]

إنّ الإبداع الحضاري، أو ما يسمى بالمنتوج الثّقافي، المتمثّل في الأفكار والأشياء والقيم والقوانين، يكون بدافع الفكرة الدينية، فهي الطّاقة المحرّكة للعمل الجماعي المشترك، والمغذية للدّيناميكية الاجتماعية والفعالية الفردية؛ فقبل أن نغيّر الأشياء، لابدّ من تغيير الأنفس أوّلا، "ولا يحصل التّغيير في محيط الفرد ما لم يحصل في نفسه أوّلا." [2]

إنّ الحضارة عملية بناء ناتج عن حركة الفرد داخل المجتمع، ولابدّ لهذه الحركة من أساس فكري قوي؛ يغرس في النّفوس الإيمان بالعمل وبالأهداف المنتظرة منه، وبضرورة الإندماج في الحركة الاجتماعية العامّة وفق منهج يحدّد الوسائل والأهداف، وإيديولوجية تستلهم من هذه الفكرة ذات الأساس الغيبي، وتوحّد المجتمع على قيم وأسلوب حياة وغاية مشتركة. إنّ الفكرة الدينية تخلق في الفرد والمجتمع التّوتّر، لكنّه ليس توتّرا مرضيا، بل هو توتر حيوي خلّاق، يرفع من مسوّغات النشاط إلى أعلى مستوى؛ يتجلى في صور التضحية والاستشهاد في سبيل المثل العليا، وإيثار الآخرين عن النفس، كما رأينا ذلك في المجتمع الإسلامي الأوّل[3]. إنّ الفكرة الدينية تتدخّل في توجيه الثّقافة بمركّباتها الأربعة، وفي توجيه العمل ورأس المال، "فهناك ملايين السّواعد العاملة والعقول المفكّرة في البلاد الإسلامية، صالحة

1- د/ جيلالي بوبكر، الإصلاح والتّجديد ص 61.
2- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
3- مالك بن نبي، تأمّلات ص 42.

لأن تستخدم في كلّ وقت؛ والمهمّ هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكوّن من ملايين السّواعد والعقول". [1]

وهذا التوجيه تحرّكه الدّفعة الدّينية، الروح التي تكسبه معنى الجماعة ومعنى الكفاح[2].

لقد سبق أن تحدّثنا عن فكرة التّوجيه، لكن ما يهمّنا هنا هو أن نبيّن أثر الفكرة الدينية في التّوجيه نحو البناء والإبداع.

تحدّثنا من قبل عن التّوجيه الأخلاقي وكيف يساهم في تكوين شبكة علاقات اجتماعية متينة تقوم على أساس روحي، وتجمع أفرادها الألفة والأخوّة. إنّ شبكة العلاقات الاجتماعية حينما يكون أساسها أخلاقيا، فإنّها ستخلق حركية اجتماعية يساهم فيها جميع أفراد المجتمع نحو اتّجاه واحد؛ ينتج عنها نتاج حضاري.

كما تحدّثنا عن التّوجيه الجمالي، وكيف يحمل الفرد على الإحسان في القول وفي العمل، فكلّ عمل له علاقة بالجمال، وكلّ منتوج حضاري يعبّر عن الذّوق الجمالي للحضارة التي تنتجه. وإنّ من مظاهر الحضارة ومنتوجات الثقافة الجانب العمراني، الذي يضفي على المدينة مسحة جمالية، تعبّر عن إبداع حضاري وذوق جمالي. ثمّ إنّ الذّوق الجمالي مرتبط بالمبدأ الأخلاقي لا ينفصل عنه –كما ذكرنا ذلك سابقا-

إنّ الفكرة الدينية هي التي تخلق الفعالية في العمل، فلا نفعل أيّ شيء، وبأيّ طريقة كانت، بل لابدّ أن نربط العمل بوسائله ومعانيه، "فلا نستسهل أو نستصعب شيئا، بغير مقياس يستمدّ معاييره من واقع الوسط الاجتماعي"[3]. لابدّ أن نؤدي بالعمل وظيفة معيّنة، ونحقّق هدفا معيّنا، ونحصل على ثمرة ما.

أمّا عن توجيه الصّناعة، فإنّ الفكرة الدينية تبثّ فينا حبّ المهنة، وإتقانها، وتطويرها، وتبعث فينا روح الإبداع.

1- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة ص 84.

2- المصدر نفسه ص 84.

3- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص102.

كما أنّ البناء الحضاري يقوم على العمل، وإنّ الروح حينما يسطع نورها، وتتمكّن من النّفوس؛ تدفع إلى العمل، وبدون عمل لن يكون هناك إبداع ولا إنتاج. ولكن ما يهمّ في المجتمع النّاشئ ليس النّاحية الكسبية في العمل، بل الناحية التّربوية. ومعنى توجيه العمل هو "سير الجهود الجماعية في اتّجاه واحد، بما في ذلك جهد الراعي وصاحب الحرفة، والتّاجر والطّالب والعالم والمرأة والمثقّف والفلاح؛ لكي يضع كلّ منهم في كلّ يوم لبنة جديدة في البناء"[1].

أمّا بالنّسبة لتوجيه رأس المال، فإنّ الفكرة الدّينية هي التي تجعل منه آلة اجتماعية تنهض بالتّقدّم المادي، لا آلة سياسية في يد فئة من الرّأسماليين والإقطاعيين. لابدّ أن نفهم رأس المال في معناه الدّيناميكي الحركي الاجتماعي، الذي يرتبط بالمبدأ الأخلاقي، "فالقضية ليست في تكديس الثّروة، ولكن في تحريك المال وتنشيطه، بتوجيه أموال الأمّة البسيطة، وذلك بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرّك، ينشط الفكر والعمل والحياة في البلاد". [2]

والخلاصة أنّ: المهمّ في الفكرة الدّينية ليس مفهومها النّظري، ولكن دورها الحركي، والاجتماعي؛ **أوّلا:** -في تغيير النّفوس، و**ثانيا**: في فعالية فردية وديناميكية اجتماعية تتّجه نحو البناء الحضاري.

1- المصدر السّابق ص114.

2- المصدر نفسه ص121.

الفصل الخامس

مشكلة التخلّف الحضاري في العالم الإسلامي

أوّلا:

❋مفهوم التّخلّف عند مالك بن نبي ومظاهره❋

1- **مفهوم التّخلّف عند مالك بن نبي:** " بشكل عام، هو مجموعة المشاكل التي لها ميزات اجتماعية، سياسية، اقتصادية في مقياس آخر، لكن جزءا كبيرا منها نفسي، وإن كان جانبها الغالب سياسي واجتماعي"[1]. "والتّخلّف في التّعريف الاقتصادي هو نقص الوسائل"[2]، ولكن هذا التّعريف يوقعنا –حسب مالك بن نبي- في الاقتصادوية l'économisme؛ لأنّ حقيقة التّخلّف ليس في نقص الوسائل،وإنّما في سوء استخدامها. -إنّ التّخلّف لا يرتبط بالوسائل بقدر ما يرتبط بالثّقافة، ويقابله النّمو والتّقدّم والحركية الاجتماعية، والفعالية الفردية، "ولو قارنّا بين النّمو والتّخلّف على المستوى الاجتماعي، والفعالية واللاّفعالية الفردية على المستوى الفردي، نكون قد قارنا بين مستويين للثّقافة". [3] وعليه فإنّ التّخلّف يعني اللاّفعالية الفردية واللاّفعالية الاجتماعية، أي أنّه مرتبط بالإنسان بالدّرجة الأولى؛ إنّه تخلّف حضاري، أمّا الضّعف الاقتصادي، ونقص الوسائل، فما هما إلّا نتاج لهذا التّخلّف الحضاري. إنّ التّخلّف باختصار هو "الحالة الاجتماعية التي يكون عليها إنسان ما قبل الحضارة، الإنسان الذي يضع مشكلاته في حدود الأشياء."[4]

1- Malek Bennabi, La réalité et le devenir (op) p 100.

2-Malek Bennabi, Pour changer l'Algérie (Articles de presse), société d'édition et de communication 1989 P 106.

3- مالك بن نبي، آفاق جزائرية ص 107.

4- مالك بن نبي، تأملات ص 61.

2-<u>مظاهر تخلّف العالم الإسلامي عند مالك بن نبي</u>: لقد دخل العالم الإسلامي في التّخلّف بعد أفول الرّوح، وانفلات الغرائز من رقابتها، و تنصّل الفرد من مسؤولياته الاجتماعية؛ ويطلق مالك بن نبي على إنسان ما بعد الحضارة (مسلوب الحضارة) اسم "إنسان ما بعد الموحّدين". لقد انفصل إنسان ما بعد الموحّدين عن الفكرة وصار ذا بعدين: الشّيء والشّخص[1]، لقد دخل العالم الإسلامي عالم الأشياء ولم يدخل عالم الأفكار[2]. إنّه اليوم في مرحلة العماء واللاّيقين، بعد مرحلة النّوم، ثمّ مرحلة الاستيقاظ وعودة الوعي، تماما كالطّفل الذي تجاوز لديه التّقليد والمحاكاة حدودهما بعدما تجاوز عمره عمر الطّفولة، إنّه يعيش فعلا في طّفولة اجتماعية [3]. إنّ عالم ما بعد التّحضّر مثقل بالأشياء، لكنّها خامدة، خالية من المعنى[4]، يطغى عليه -إلى جانب الأشياء- تقديس الأشخاص، حيث صار مثله الأعلى أشخاص يجسّدون فكرة ليسوا أهلا لها[5]؛ كأن يجسّدوا صفة الزّعيم الوطني الثّوري، الذي يرمز إلى البطولة والشّهامة والجهاد، مع أنّه لم يجاهد في حياته.

لقد رجع إنسان ما بعد الموحّدين إلى الارتباط بالأوثان، وصار ينتقل من وثن إلى آخر[6]، حيث صار العالم والزّعيم السّياسي وثنا، وكذلك منتوجات الحضارة الغربية صارت أوثانا. وحتّى لو تعلّق هذا الإنسان بالأفكار، فإنّه يتعلّق بأفكار فقدت قيمتها وفعاليتها؛ أفكار ميّتة خذلت أصولها وانحرفت عن مثلها الأعلى، أو أفكار قاتلة (استوردها من الغرب) فقدت هويّتها وقيمتها الثّقافية، بعدما فقدت جذورها التي بقيت في عالمها الثّقافي الأصلي. لقد ظهر أكلة الأفكار les idéophage، الذين يتمثّل دورهم في مهاجمة كلّ فكرة أصيلة، ثمّ إنّ

1- Malek Bannabi, Les grands thèmes (OP) P94.

2- Malek Bennabi, Idée d'un Commonwealth Islamique, El Borhane 2014, p 50.

3- Ibid p 23.

4- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 34.

5- المصدر نفسه ص 79.

6- المصدر نفسه ص 84.

عدوى هذه الأفكار الميّتة انتقل عبر الأجيال[1]. وترسّخ في اللاّوعي الاجتماعي. لقد غابت عن إنسان ما بعد الموحّدين الأصالة في التّفكير و في السّلوك، وصار أكثر من يعاني عقدة النّقص أمام الآخرين؛ ويقدّم لنا مالك بن نبي مثالا على ذلك: محاضرة ألقاها صديقه "حمودة بن السّاعي" وهما في مرحلة الشّباب، أمام أنظار أحد كبار شيوخ جمعية العلماء المسلمين، وهو الشّيخ "الطّيّب العقبي"، فما كان من الشّيخ إلّا أن عقب على المحاضرة قائلا: بأنّها ليست له، وأنّه سبق وأن قرأ مثلها في إحدى الصّحف العربية[2]. وكما قال ابن خلدون: " المغلوب مولع بتقليد الغالب." مازال الإنسان المسلوب الحضارة يعاني القابلية للاستعمار، والتي من أشكالها التّبعية حتّى في طريقة التّفكير. ثمّ إنّه حينما يقلّد الغرب، يقلّده في أيّ شيء؟ إمّا أن يقلّده في أشياء تقصم ظهره، وتقضي على ما بقي من روحه، أو في أشياء حقيرة تافهة، يقول مالك بن نبي: " فإمّا أن نذهب إلى مزبلة الغرب أو إلى مقبرته." [3]

إنّنا عاجزون عن التّفكير، وإن فكّرنا فإنّنا لا نربط هذا التّفكير بنتيجته المادية، إنّنا نعاني من "انعدام الرّباط المنطقي الجدلي بين الفكر ونتيجته المادية"[4]، لقد أصابنا الشّلل في التّفكير وفي العمل، فرديا واجتماعيا، ومع ذلك فقد أصابنا الغرور من الناحية الأخلاقية، فلا أحد يعترف بأخطائه[5]، ولا يهمّه أن يصحّح أخطاء الآخرين. إنّ المسلم يعاني من خمول في كلّ شيء، صار منفعلا، تغيب عنده المبادرة؛ لانعدام الدّافع، وإن بادر إلى العمل لم يسبق ذلك العمل فكر منسجم و تخطيط للأهداف والوسائل، ففكره بلا دافع ولا هدف، ولا يترجم إلى عمل، وعمله بلا فكر[6].

1- المصدر السّابق ص 153.
2- مالك بن نبي، مذكّرات شاهد القرن ص 267.
3- مالك بن نبي، في مهبّ المعركة ص 151.
4- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ص 83.
5- المصدر نفسه ص 87.
6- المصدر نفسه ص 91.

لقد طغت النّزعة الفردية على المسلم المعاصر، حتّى في تديّنه؛ فصار إيمانه فرديا كإيمان الرّهبان[1]، وفقد الدّين دوره الاجتماعي، حيث انفصل الروحي عن الاجتماعي[2]، بعدما انفصل فيما مضى عن السّياسي. وحتى لو كانت هناك جهود نحو البناء الحضاري، فإنّ هذه الجهود متفرّقة، فردية، متجزّئة، منفصلة، "إنّ موقفنا الاجتماعي لا يتّسم بالإرادة المتّصلة والجهد المتواصل، ولكنّه يتّسم بالمحاولات المتتابعة والإرادات الخافتة." [3] إنّ إنسان ما بعد الموحّدين يعاني الذّرية في التّفكير، "فهو لا يتناول الموضوع بالجملة وإنّما أجزاءا منه"، [4] تعوزه النّظرة التّركيبية للأشياء، ويعوز سلوكه الحافز والحركة، كما يغيب عن الحياة الاجتماعية أسلوب حياة مشترك، والتجنيد العام نحو هدف واحد[5].

وإذن نؤكّد فنقول: إنّ التّخلّف ليس في نقص الوسائل، ولكن في العجز عن التّصرّف في الوسائل المتاحة، وتوجيهها الوجهة المناسبة، وإبداع وسائل جديدة؛ حتّى لا نقع في التّكديس: تكديس الأشياء، بأن نشتري من غيرنا أشياء قد لا نحتاجها، وأن نعتمد على أشياء الآخر ووسائله دون أن نسعى لإنتاج ما نحتاجه منها، أو نشتري أشياء نستطيع تصنيعها، أو هي متوفّرة لدينا، أو قد تضرّنا أكثر ممّا تنفعنا.

ومن أمثلة تكديس الأشياء؛ أن نجد في مكتب أحد المسؤولين خمسة هواتف مكدّسة، وبالتالي فإنّها ستفقد قيمتها العملية. ولكنّ فكرة التّكديس لا تخصّ الأشياء فقط، بل الأشخاص والأفكار أيضا؛ أمّا تكديس الأشخاص، فمعناه: أن نخلق في مجال العمل مناصب عمل بدل أن نخلق العمل نفسه، فنجعل لعمل واحد عاملين أو أكثر، أو نخلق المنصب دون العمل. وأمّا بالنّسبة لتكديس الأفكار، فإنّنا كثيرا ما نهتمّ بالكمّ على حساب الكيف -حتّى في مجال التّأليف-، وفي

1- المصدر السّابق ص 32.
2- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 106.
3- مالك بن نبي، في مهبّ المعركة ص 136.
4- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 163.
5- المصدر نفسه والصّفحة نفسها.

مذكّرات التّخرّج، كما نهتمّ بالجانب الشّكلي على حساب المضمون، وباللفظ على حساب المعنى، وبالفكرة في جانبها النّظري على حساب دورها الاجتماعي، "لقد ظلّ المثل الأعلى – في مجال العلم- أن يصبح الإنسان بحر علم... ويفقد العلم دوره الاجتماعي... لقد استعبدتنا الألفاظ وشهوة الكلام." [1]

وفي الاقتصاد وقعنا في الاقتصادوية l'économisme؛ فقد غابت القيم الثّقافية التي توجّه كلّ جهد اقتصادي نحو خدمة الإنسان والحضارة[2]، ولم نعد نستطيع تحويل قوّة العمل إلى ساعات عمل حقيقية.[3]

ترى كم يشتغل العامل المسلم في اليوم الواحد؟ وهل المقابل الذي يتلقّاه يساوي الجهد الذي يبذله أم أكثر بكثير؟

لو قارنا بين العامل المسلم –العامل الجزائري- نموذجا و-العامل الياباني- فماذا سنجد؟ إنّ العامل الياباني في عمله لا يشعر بالاستلاب والاغتراب، أي لا يشعر بأنّ العمل الذي يقوم به غريب عنه، أو أنّ ثمار عمله تستلب منه، بل إنّه يعمل وكأنّ العمل عمله، وهو الذي يستفيد من ثمار هذا العمل. أمّا العامل الجزائري، فإنّه لا يجد أيّ حافز في عمله، ولا ينتظر أيّ ثمرة، وتنقصه الفعالية، ولا تعنيه المردودية، باختصار هو يذهب إلى العمل ولا يذهب ليعمل.

من مظاهر التّخلّف في المجتمعات الإسلامية أيضا، أنّها لم تهتمّ بالتّراب، لم تغيّر فيه، لم تحوّل المادة الأولية إلى مادة مصنّعة، لم تزرع الأرض، لم تواجه مشكلات الطّبيعة بحلول ناجحة (مشكلة التّصحّر مثلا)، لم تحسن استعمال ثرواتها، و"الخوف من الوصول إلى حياة

1- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ص 60.

2- Malek Bennabi, Articles de presse P 101.

3- Ibid P 109.

نباتية (بدائية). [1] كما أنّ الإنسان المسلم (المتخلّف بشكل عام) لا يعرف فكرة الزّمن، [2] ولا يحسن استغلالها، بل نجده يبحث عن وسائل إهدار الوقت، مع أنّ "الوقت هو الحياة"، وعند الغربيين -نظرة اقتصادية مادية للوقت- «الوقت من ذهب".

ومن مظاهر تخلّف العالم الإسلامي، تفكّك شبكة العلاقات الاجتماعية، وغياب الذّوق الجمالي (ضجيج في كلّ مكان، روائح كريهة، غياب النّظافة، طرق مهترئة، غياب التّهيئة العمرانية، غياب الصّبغة الفنية في العمارة، فوضى في البناء، غياب التّناسق والانسجام في الكلام، انتشار الكلام البذيء...)، ثمّ انفصال الذّوق الجمالي عن المبدأ الأخلاقي، ثمّ انفصال بين المبدأ والحياة، بين العنصر الروحي والعنصر المادي[3]؛ لذلك نجد تناقضا رهيبا بين سلوك الفرد في المسجد وسلوكه في الشّارع.[4]

أمّا السّياسة فيعوزها التّخطيط، ولم يعد للسّاسة القدرة على توجيه شعوبهم نحو غاية واحدة، وشحن نفوسهم بالحماس لإيديولوجية الدّولة، بل إنّ الدولة لم تعد لها إيديولوجيا أصلا، كلّ ما يهمّها هو الحفاظ على استقرار النّظام، بأيّة وسيلة؛ حتّى صرنا "نرى الجزائري لا يهتمّ بدفع الضّرائب ويهمل عمله، ولا يحترم القوانين." [5] فإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على فشل السّياسة.

إنّ سياسة الدّول الإسلامية سياسة تسودها الرّوح الموضوعية، وهي الروح المحافظة، وأساسها الحفاظ على المصالح والحياة (الشّرعية الثّورية في الجزائر هي روح موضوعية).[6] لكن في ظلّ غياب الأخلاق، تتحوّل إلى "بوليتيك وديماغوجيا"؛ لذلك نجد الحاكم المسلم (خاصة العربي) يمارس الاستبداد باسم الوطنية، باسم الثّورة والشّهداء، وباسم

1- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 139.
2-المصدر نفسه ص 148.
3- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص 105.
4- المصدر نفسه ص 106.
5- Malek Bennabi, Les grands thèmes p 81
6- Malek Bennabi, Articles de presse P 19.

المصلحة العليا للأمّة، فهو رمز الثّورة وزعيمها الأوحد، وهو وحده القائد الذي يقود شعبه إلى النّصر، ويخرجه من التّخلّف، وتوجيهاته لا نقاش فيها؛ حتى بلغ مستوى الانحطاط السّياسي إلى تقديس الزّعيم، (مثال عن التّعلّق بعالم الأشخاص)، ولو كان ظالما، أو جاهلا، أو عاجزا. ومن مظاهر التّخلّف السّياسي، الاهتمام بالشّكل على حساب الجوهر، ومعالجة المشكلات الهامشية على حساب المشكلات الحقيقية، وممارسة الدّيمقراطية الشّكلية على حساب الدّيمقراطية الحقيقية[1].

1- سيكون لنا حديث عن الديمقراطية في الإسلام، كما يراها مالك بن نبي.

❋ثانيا:

❋أسباب التّخلّف الحضاري في العالم الإسلامي وجهود المصلحين في مواجهته❋

1- أسباب التّخلّف الحضاري في العالم الإسلامي عند مالك بن نبي: جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ **ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون❋ ولا تكونوا كالّذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البيّنات، وأولئك لهم عذاب عظيم❋.**﴾[1] في الآية أمر إلهي بضرورة بناء مجتمع موحّد، يقوم على مبدأين أساسيين هما: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

ولكن إنسان ما بعد الموحّين فقد القدرة على بناء مجتمع متلاحم، يحكمه مشروع ثقافي وحضاري واحد؛ فلم يعد المجتمع يأبه بأخطاء الفرد، ولا الفرد يأبه بالانحراف في الأسلوب والتّوجّه الاجتماعي، ولقد "كانت الأخطاء الصّغيرة –كما يقول مالك بن نبي- في مجتمع النّبوّة والخلافة الرّاشدة، تأكل من أسطوانة الثّقافة" [2]. لقد غابت الحساسية الأخلاقية والجمالية في المجتمعات الإسلامية، وغاب التّناسق بينهما و "إنّ مقدار فناء تلك الحساسية الأخلاقية والجمالية، دليل على عدم تماسك عالم الأفكار، وعلى انحطاط اجتماعي." [3] إنّ العنصرين الأخلاقي والجمالي هما العنصران الأساسيان والضّروريان للحفاظ على تماسك ومتانة العلاقات الاجتماعية، وعلى حركيتها وفعاليتها، ويتجسّد ذلك في النّقد الفردي

1- سورة آل عمران، الآيتان 104-105.

2- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 74.

3- المصدر نفسه، والصّفحة نفسها.

والإلزام الاجتماعي، (وفي المصطلح الشّرعي: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر)؛ وبالتالي لم يعد للثّقافة من دور اجتماعي، "فالإرغام الاجتماعي والموقف النّقدي للفرد (حول أسلوب حياة المجتمع) هما المظهران الأساسيان للثّقافة في وظيفتها الاجتماعية." [1] فكلّ خطأ في الأسلوب ينقده الأفراد، وكلّ خطأ في السّلوك تحت الرّقابة الاجتماعية؛ وهذا ما يجب أن يكون، ولكن ما هو موجود أنّ نقد الفرد في العالم الإسلامي يتجلى في المطالبة بمزيد من الحقوق والحريات، أمّا الإرغام الاجتماعي فيتجلى في مزيد من القمع والاستبداد؛ لا من أجل الحفاظ على القيم الاجتماعية، وعلى روح الجماعة، بل في سبيل الحفاظ على نظام قائم يلعب دور الحامي للتّخلّف والوضع القائم، بدل أن يخلق "مجالا روحيا noosphère ينمّي فيه الفرد وجوده النّفسي،" [2] أي بدل أن يخلق ثقافة ذات دور وفعالية اجتماعية، يلتزم من خلالها الفرد بواجباته الاجتماعية، انطلاقا من ضميره الحيّ. فحينما تولّى عمر بن الخطاب الخلافة، خاطب شعبه قائلا: "إن رأيتم فيّ اعوجاجا فقوّموني"، فأجابه أعرابي قائلا: "إن رأينا فيك اعوجاجا قوّمناه بحدّ سيوفنا"؛ لقد اتّحدت في هذا الموقف حركات الفكر والعواطف و القوّة الدافعة إلى العمل؛ ولقد كانت إجابة الأعرابي هي إجابة المجتمع كلّه في شخصه. [3]

وجدير بقادة المسلمين خلق ديناميكية اجتماعية، مصدرها الفكرة الأخلاقية السّامية والقيم الرّوحية، من خلال ترجمة هذه القيم الأخلاقية إلى قيم اجتماعية[4]، أي خلق ثقافة حضارية إيجابية، ثقافة بناء، بدل الاهتمام بالتافه منها، فالثّقافة ليست فلكلورا، وليست غناءا ورقصا، ولكنّها روح خلّاقة، وليست حرفية ثقافية، -حيث لا نرى فيها إلّا المنصب أو المال؛ حتّى لم

1- مالك بن نبي، آفات جزائرية ص 134.
2- مالك بن نبي، مشكلة الثّقافة ص 50.
3- المصدر نفسه ص 57.
4- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونج)، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر- الجزائر-، الطّبعة الثالثة 1992، ص 242.

يعد للسّياسي من هدف إلّا الحفاظ على منصبه أو السّعي نحو منصب أعلى، ولم يعد للمتعلّم من هدف إلّا الحصول على شهادة عليا تسمح له بالاعتلاء إلى المناصب العليا في المجتمع، فهناك حرفية في السّياسة، وحرفية في التّعلّم- جعلتنا نتحدّث عن المتعالم بعد انفصال العلم عن الضّمير الحيّ الفعّال[1]، وصارت السّياسة تشريفا لا مسؤولية اجتماعية، ورغبة لا شعورا أخلاقيا، ترتبط بنزوات الحاكم، ولا ترتبط بالتّوجّهات الحضارية –للمجتمع- التي يحكمها المبدأ الأخلاقي.

إذن هناك سلبية ثقافية تسود جميع مركّبات الثّقافة، فالمسلم اليوم "ليس سلبيا فحسب، بل يبدو أحيانا أنّه يبحث عن السّلبية."[2] وتتجلى هذه السلبية:

-في المبدأ الأخلاقي: فلم يعد يؤثّر في النّفوس، ولم يعد يلعب دور المركّب لشبكة العلاقات الاجتماعية، أي أنّه انفصل عن الواقع، هذا لا يعني أنّه غاب تماما في النّفوس، لكنّه لم يعد يلعب دور المحرّك والدّافع إلى العمل والتّجديد الحضاري، " لقد فقدت الأفكار التي أثبتت فعاليتها في بناء الحضارة الإسلامية منذ ألف عام فعاليتها، وفقدت التصاقها بالواقع." [3]

-سلبية في الذّوق الجمالي: لم يعد فيما يفعله المسلم، أو يقوله، أو يصنعه أيّ مسحة جمالية، على عكس الإنسان الغربي المتحضر، الذي لا يصنع السّلع الجيّدة فقط بل والجميلة أيضا. [4]

-سلبية في منطقنا العملي: حيث تنقصنا الحركة والنّشاط والعزم، وحتّى لو كان هناك نشاط فهو نشاط غير مثمر وغير فعّال، تغيب فيه الإرادة، ويغيب الانتباه والقصد.

إنّ المسلم يتصرّف في أربع وعشرين ساعة كلّ يوم، فقد ينفق ماله ويستغلّ علمه، ويستخدم إمكانياته لتعلّم علم أو حرفة ما، لكن أكثر جهده وماله وعلمه، يذهب في العبث والمحاولات الهازلة[5]، لقد أصابه ذهان السهل والمستحيل[6]، فإمّا أن يستسهل كل شيء فلا يعطيه حقه من

1- مالك بن نبي، مشكلة الثّقافة ص 77.
2- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية ص 249.
3- مالك بن نبي، مشكلة الثّقافة ص 160.
4- المصدر نفسه ص 249.
5- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 102.
6- مالك بن نبي، تأملات ص 30.

الجهد والفعالية، أو يصيبه الشلل الحضاري، واليأس من النّهوض؛ فيلقي اللائمة على غيره.

-سلبية في الاقتصاد: فالوسائل متعطّلة، لا نحسن استخدامها؛ بسبب نقص الوعي[1]؛ إذ لم يعد يحكم الاقتصاد مبدأ أخلاقي مؤثّر اجتماعيا، "فإنّ مبدءا اقتصاديا لا يمكن أن يكون له أثره، ومقدرته التّامة على التّأثير، إلّا في الظّروف التي تتّفق فيها معه تجربة اجتماعية معيّنة."[2] إنّنا لم نوجّه اقتصادنا نحو تحقيق الأهداف المشتركة، التي تتلاءم مع إيديولوجيتنا وإمكانياتنا؛ أي الوجهة الحضارية، وجهة البناء، بل وجّه وجهة الاستهلاك والتّكديس، حتّى أنّ أغلب مشترياتنا (95 %) عبارة عن سلع غير ضرورية؛ بسبب غياب مشروع اقتصادي حقيقي يرتبط بالمشروع الحضاري للمجتمع، وبتقدير دقيق للأهداف والوسائل. إنّ مشاريعنا الاقتصادية تتجاوز إمكانياتنا المادية، وتتناقض شروط تنفيذها مع العوامل النفسية للتّخلّف لدينا، ولا تتناسب مع إمكانياتنا ولا إرادتنا الحضارية، أي أنّها لا تتناسب لا مع العدّة ولا مع العتاد[3]. لقد نجح الدّكتور شاخت في تحقيق نهضة اقتصادية حقيقية في ألمانيا، بعد الحرب العالمية الثانية؛ فأصبحت ألمانيا دولة متقدّمة، وجدّدت بنيتها التحتية في ظرف عشر سنين؛ بفضل الاستثمار في الإنسان بالدّرجة الأولى (السّواعد والعقول)، وربط النّهضة الاقتصادية بالنّهضة الثّقافية، وبالرّوح الحضارية للأمّة، لكن "مشروع الدّكتور شاخت فشل في اندونيسيا؛ لأنّه لم يأخذ بعين الاعتبار المعادلة الذّاتية... فإنّ مشروعا اقتصاديا نعدّه بأفكار غيرنا، وننفّذه بوسائلهم لا ينجح..." [4] لقد نجحت التجربة الألمانية؛ لأنها استثمرت وتصرّفت في قيم إنسانية فعّالة، وأخفقت في أندونيسيا؛ لأنّها أهملت عامل الإنسان، فالدكتور شاخت خطّط في أندونيسيا في ضوء معطيات حول الإنسان الألماني[5]. وعليه فإنّ نجاح أيّة تجربة

1- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية ص 168.
2-المصدر نفسه ص 161.
3- مالك بن نبي، تأملات ص 54.
4-مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 115.
5-مالك بن نبي، تأملات ص58.

اقتصادية، يتطلّب بناء شخصية جديدة منتجة وفعالة، ويتطلّب نجاح هذه الشخصية[1].
لا توجد في العالم الإسلامي (مع بعض الاستثناءات كماليزيا مثلا) سياسة تقوم على تحقيق الانسجام بين الأفراد داخل المجتمع، وعلى الثّقة بين الدّولة ورعاياها، وعلى المبدأ الأخلاقي والذّوق الجمالي، وتنحو اتّجاه البناء الحضاري المشترك؛ "فإنّ المدينة المسلمة ليست مزيجا من طوائف اجتماعية مختلفة، بل إنّها بوتقة جماعة وحدتها الثّقة المتبادلة بين سائر أفرادها، حاكمين ومحكومين... فالسّياسة لابدّ أن تكون: أخلاقية، جمالية، علمية؛ لكي يكون لها معنى في مسيرة التّاريخ... والسّياسي يجب أن يكون نزيها، كفؤا وملائما."[2] إنّ السّياسة أخلاق، فن وجمال، علم وعمل.

هذه بعض أسباب التّخلّف في العالم الإسلامي، لكن يمكن أن نختصرها في سبب رئيس هو أفول الرّوح، أي انفصال المبدأ الأخلاقي عن الحياة الاجتماعية والسّلوك الفردي، بمعنى غياب هذا المبدأ عن ميدان الحضارة.

ولقد فهم "المهاتما غاندي" في الهند الدّور الذي يلعبه المبدأ الأخلاقي في التّأثير على النّفوس، وبالتالي في تغيير الإنسان؛ فواجه قضيّة التّحرّر على أساس اجتماعي لا على أساس سياسي[3].

بقي عامل مهمّ لابدّ من ذكره؛ نظرا للدّور الّذي لعبه في انحطاط الإنسان مسلوب الحضارة، إنّه العامل الاستعماري؛ "فالاستعمار لم يؤثّر على الرّجل المستعمر في مفهومه السّياسي فقط... بل لقد أثّر عليه في أعماقه، وفي تكويناته الأساسية، حتّى لقد وصل إلى ضميره في صورة حالات ذهان، وحالات حرمان، يشلّ عنده كلّ جهد خلّاق." [4]

ومازالت نفسية المستعمر القديمة لم تتغيّر، ومازال يستعين بكلّ المبرّرات ليتدخّل في شؤون

1- المصدر السابق ص 59.
2-مالك بن نبي، مشكلة الأفكار ص 124.
3-مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية ص 113.
4- مالك بن نبي، مشكلة الثّقافة ص 107.

الدّول بالقوّة، "وهو حينما يفقد كلّ مسوغاته، ولاسيما مسوغ القوّة، نجده يستخدم جند الأشباح القديمة، مفتخرا برسالة ناشر الحضارة، أمام المتوحّشين الإفريقيين، وأمام الهمج الأسياويين..."[1]

لقد تدخّل الاستعمار فيما سبق عسكريا، ومارس الاستيطان دهرا طويلا (خصوصا في الجزائر)، وهو اليوم يمارس رقابة شديدة على أفكارنا ومشاريعنا الإصلاحية؛ إنّ له مراصدا لمراقبة حركة أفكارنا[2]، فيغيّر من قيمتها واتّجاهها، ويخضع الفكرة إلى حسابات رياضية دقيقة[3]؛ فيجعل من الفكرة التّافهة فكرة قيّمة، ومن الفكرة القيّمة الدّافعة فكرة تافهة أو خطيرة على الإنسان والحضارة.

لقد جعل الاستعمار –مثلا- من الفكرة الإسلامية فكرة مضادة للحياة والسّلام، فالإسلام يعني الإرهاب؛ ووجّهها وفق ما يخدم مقاصده؛ فصنع القاعدة، وصنع داعش، وأفقد كلّ فكرة أصيلة أصالتها وقيمتها التّجديدية، وإشعاعها الاجتماعي، ثمّ صدّر لنا سمومه وأفكاره القاتلة، وبين الفكرتين "ركود أو حركة مزيّفة وفوضى." [4]

لقد وجد العالم الإسلامي نفسه بين فكرتين؛ فكرة ميّتة فقدت قيمتها الحضارية، وفكرة مستوردة من الغرب لكنّها قاتلة؛ فلم نعد نرى في مجتمعاتنا إلّا التافه أو القاتل.

لقد حرص المستعمر ومازال حريصا، على أن يبقى المجتمع الإسلامي عقيما في الأفكار، فإن أنتج فكرا، حرص على أن يفصله عن العمل والحركة، وإن أنتج فكرة فعّالة ومؤثّرة اجتماعيا، حرص أن توضع في غير مكانها المناسب، أو أن يحط من قيمتها، أو أن يخوّف النّاس منها. ويستعين الاستعمار في ذلك بمختصّين وخبراء في صراع الأفكار، وفي الصّراع الإيديولوجي، وقد يستعين بالإنسان المسلم نفسه (أكان عالما، أو قائدا، أو زعيما،

1- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية ص 107.

2- Malek Bennabi, Idée d’un commonwealth islamique (op) p 54.

3- Ibid p 55.

4-مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص142.

أو مفكّرا، أو سياسيا)، فيستخدمه وسيلة لتحقيق أهدافه، (سواء أكان عن قصد أو عن غير قصد). لقد اهتمّ المستعمر بأن يبقي المستعمر في عالم أشيائه، هذه الأشياء التي لا يصنعها هو، بل يشتريها من مستعمره التّقليدي الذي يملك الأشياء ويملك الأفكار، ولكنّه يصدّر لنا الأشياء، ولا يصدّر لنا الأفكار التي صنعها؛ فإن سمح لنفسه أن يصدّر لنا الأفكار، صدر لنا المسمومة القاتلة منها، وهكذا نبقى تابعين، مرتبطين به، لا نعيش بدونه؛ فقد "خلق المستعمر في المستعمر الخوف من الجوع، خلق الرّجل الجائع دائما." [1]

2-**<u>هل فشلت جهود الإصلاح في العالم الإسلامي؟</u>**

"إنّ معرفة إنسان الحضارة وإعداده أشقّ كثيرا من صنع محرّك أو ترويض قرد على استخدام ربطة العنق."[2] فليس من السّهل أن نجدّد حضارة مسلوبة؛ لأنّها مرتبطة بإصلاح الإنسان وإعداد رجل الحضارة. ولهذا لمّا سئل ابن باديس عن العلّة التي منعته من تأليف الكتب، أجاب قائلا: " شغلنا إعداد الرّجال عن تأليف الكتب".

لقد بدأت بوادر النّهضة في العالم الإسلامي الحديث في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، وبالتّحديد سنة 1858 (كما يذكر مالك بن نبي)، متزامنة مع النّهضة اليابانية الحديثة التي انطلقت سنة 1868 في عهد الإمبراطور **الميجي** [3]؛ لكن النّهضة الإسلامية فشلت والنّهضة اليابانية نجحت، لماذا؟

- لقد اتّخذت النّهضة في العالم الإسلامي اتّجاهين:

<u>أ- الاتجاه الإصلاحي</u>: -ويعتبر جمال الدّين الأفغاني أوّل من جرؤ على الحديث عن الوظيفة الاجتماعية التي ارتبطت بالأنبياء، ألا وهي وظيفة الإصلاح، لكنّه اهتمّ أكثر بالجانب السّياسي، فدعا إلى إعادة بناء النّظام السّياسي في العالم الإسلامي على أساس الأخوّة[1].

1- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية ص 163.

2- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ص 38.

3- Malek Bennabi, Les grands thèmes (op) p 39.

وتكمن قيمة نشاط جمال الدّين الأفغاني في كونه فجّر المأساة الإسلامية في الضّمير المسلم، أي انّه بثّ الوعي في النّفوس بضرورة التّغيير، ودعا إلى الجامعة الإسلامية، وإلى عودة الخلافة الإسلامية.

إنّ تركيز جمال الدّين على إصلاح الأنظمة والقوانين وإهماله إصلاح الإنسان، حال دون إدراك الأهداف المرجوّة[2]؛ لذلك فلا يمكن اعتباره مصلحا بأتمّ معنى الكلمة، فبدل الدّعوة إلى نظام سياسي على أساس الأخوّة، كان من الأجدر بناء مجتمع على أساس المؤاخاة[3]، أي كان من الأفضل تربية النّفوس أوّلا على الأخوّة والألفة (كما فعل الرّسول محمّد –صلى الله عليه وسلم- في نفوس أصحابه).

وقد أدرك محمّد عبده (تلميذ وصديق الأفغاني)، أنّ منطق أيّ نهضة هو إصلاح الفرد وتغييره؛ لذلك تناول مشكلة النّهضة والإصلاح من النّاحية الاجتماعية، لكنّه انحرف عن الخط الإصلاحي الحقيقي حينما ركّز كلّ اهتمامه على إصلاح علم الكلام، وبذلك يكون هو وأمثاله من المصلحين، قد حطّوا من مبادئ الإصلاح الأساسية والأصيلة[4]؛ فعلم الكلام "لا يتّصل بمشكلة النّفس، فالمسلم لم يتخلّ عن عقيدته... لكن هذه العقيدة تجرّدت من فاعليتها، لأنّها فقدت إشعاعها الاجتماعي ... وصارت فردية." [5]. إنّ المشكلة تكمن في أن نبعث في ضمير المسلم الطّاقة الروحية الدّافعة، والعقيدة الإيمانية الحيّة التي تنقله من عالم الأموات إلى عالم الأحياء، "إنّ مشكلتنا –كما يقول مالك بن نبي- ليس أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه، مصدرا للطّاقة." [6]

إنّ الأنبياء لم يكونوا فلاسفة ولا علماء كلام يتكلّمون كلاما مجرّدا، "بل كانوا مجمعين لتلك

1- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ص 50.
2- المصدر نفسه ص 51.
3- المصدر نفسه ص 52.
4- المصدر نفسه ص 53.
5- المصدر نفسه ص 54.
6-المصدر نفسه والصفحة نفسها.

الطّاقة الأخلاقية، التي أوصلوها إلى النّفوس الفطرية." [1]

إنّ المشكلة إذن ليست في تلقين العقيدة للمسلم، ولكن في إعادة تلقينه كيفية استخدامها استخداما فعّالا في الحياة، وقد أغفل محمّد عبده والمصلحون هذه المسألة[2].

أمّا جمعية العلماء المسلمين، فإنّ مالك بن نبي لا ينكر فضلها ودورها في تعميق الحسّ الدّيني ونشر الوعي الروحي والوطني، وقد كان حلمه وهو طالب في باريس أن ينضمّ إليها مع صديقه حمودة بن السّاعي، وأن يكون ممثّلها في فرنسا، لكن ذلك لم يحدث؛ لأسباب بعضها مرتبطة بشخصه، وبعضها مرتبط بجمعية العلماء ذاتها، فهي لم تدعه للمساهمة في نشاطاتها، رغم أنّه قدم لها الطّلب لذلك[3].

لقد كانت حركة الإصلاح التي قام بها العلماء الجزائريون، أقرب الحركات إلى النّفوس؛ فقد كان وقعها قويّا، لأنّ أساسها قوله تعالى: ﴿**إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم.**﴾[4-5]

ثمّ إنّ تقدير مالك بن نبي لشخصية الإمام عبد الحميد ابن باديس كان كبيرا، حيث يقول عنه: "لقد بدأت معجزة البعث تتدفّق من كلمات بن باديس، فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشّعب الجزائري المخدّر يتحرّك، ويالها من يقظة جميلة مباركة! يقظة شعب مازالت مقلتاه مشحونتين بالنّوم، فتحوّلت المناجاة إلى خطب ومحادثات ومناقشات وجدل؛ وهكذا استيقظ المعنى الجماعي وتحوّلت مناجاة الفرد إلى حديث الشّعب." [6] فلم ينكر مالك بن نبي قدر ابن باديس وفضله على الأمة، وإخلاصه لدينه ووطنه، وتأثيره في الضّمائر، حيث يقول عنه:

1- المصدر السابق ص 55.
2- مالك بن نبي، آفاق جزائرية ص 217.
3- د/ مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة ص 18.
4- سورة الرّعد، الآية 11.
5- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 27.
6- المصدر نفسه ص 26.

"فقد كان مناضلا مفحما، ومربيا بناءا، ومؤمنا متحمّسا... وفوق ذلك فقد كان مصلحا اقترن اسمه وأثره بتاريخ هذا البلد (الجزائر)[1]." كما لم يفتأ مالك بن نبي يقارن "ابن باديس" "بابن تومرت"، فهو " المصلح الذي استعاد موهبة العالم المسلم"[2].

ولكن هذا الإطراء لم يمنعه من انتقاد توجّهات الجمعية، والكشف عن أخطائها؛ وكان أوّل انحراف لها عن المسار، هو مشاركتها في المؤتمر الإسلامي الجزائري المنعقد سنة 1936، حيث تحوّل نشاطها من تربية النّفوس وتوجيه الأفكار إلى السّياسة، وبذلك يكون العلماء قد سلّموا عالمنا الثّقافي إلى سلطان الأوثان (أوثان السّياسة)، " فعادت المسيرة إلى الوراء."[3] لقد خرق العلماء المصلحون قانون التّغيير الحضاري، الذي يقوم على تغيير الأنفس، حينما توجّهوا مثل السّياسيين إلى المطالبة بالحقوق، بدل تربية الإنسان على الالتزام بالواجب أوّلا، "لقد غاب عن الأذهان أنّ الحق ملازم للواجب، وأنّ الشّعب هو الذي يخلق نظامه الجديد، عندما يغير نفسه"[4].

ثمّ إنّ الفكرة الإصلاحية قد ارتبطت بأشخاص استحوذوا عليها خدمة لمصالحهم، فتحوّلت الفكرة إلى وثن، "والواقع أنّ العلماء لم يكن لديهم حصانة كافية تحول دون الرّجوع بقوّة إلى الوثن، متنكّرا في زيّ الزّعيم السّياسي." [5] كما اتّجهت حركة الإصلاح –على غرار غيرها من الحركات- تجاه نزعة التّسامي والمديح.

لقد اتّهم مالك بن نبي جمعية العلماء المسلمين بالغفلة السّياسية والسّذاجة، وذلك في تعاملها

1-د/عمّار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره (الجزء الأوّل من المجلّد الأوّل)، دار الأمّة للطّباعة والنّشر –الجزائر- 2012 (من مقدّمة مالك بن نبي للكتاب) ص 10.

2-المرجع نفسه والصفحة نفسها.

3- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 101.

4- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 100.

5- المصدر نفسه ص 97.

مع الصّراع الفكري والإيديولوجي، وفي جهلها للدّور السّلبي والخفي الّذي يلعبه الاستعمار في ساحة الصّراع، وجهلها بقدرته فعلا على توجيه الأفكار البنّاءة في العالم الإسلامي إلى غير وجهتها، وكيف أنّه يسعى دائما لإبعاد الإنسان المستعمر من عالم الأفكار، وتركه في عالم الأشياء، يقول بن نبي: " وبما أنّ إرادة الاستعمار تقتضي وضع الإنسان في عالم الأشياء، فإنّ حكمة إبليس تقتضي أنّ الإنسان الذي وضع هذا الموضع، لا يجوز له أن يتكلّم لغة الإنسان؛ لأنّه شيء." [1]

إنّ المستعمر يسعى لخنق أفكارنا، لكن المصلحين بمنأى عن كلّ هذا، فقد عجز المصلح الجزائري عن تحرير الضمير؛ لوقوف الاستعمار والقابلية للاستعمار حائلا دون ذلك[2].

صحيح أنّ مالك بن نبي رأى أنّ جمعية العلماء المسلمين هي أقرب الحركات الإصلاحية إلى النفوس، لكنّها ما لبثت أن انحرفت منهجيا عن أهدافها وسلّمت القيادة للزّعماء السياسيين الانتهازيين، المفرنسين، وكأنّها شعرت بمركّب نقص تجاهها؛ ولذلك لمّا أدرك ابن باديس الخطأ الذي وقعت فيه الجمعية، استدرك قائلا: "سنعتمد على أنفسنا ونتوكّل على الله."[3]

وخلاصة رأي مالك بن نبي في التّوجّه الإصلاحي؛ أنّه اتّسم بالسّلبية واللاّفعالية، واتّجه نحو الأشياء بدل الاهتمام بالأفكار وغرسها في النّفوس، كما افتقد إلى المنهج والتّخطيط الحضاري، وفي هذا يقول مالك بن نبي: " فالواقع أنّ المصلح الإسلامي لم يهتمّ بأن يرسم برنامجا لإصلاحه، مقدّرا أنّ الزّمن سيوفق في حلّ المشكلات."[4] ولم يكن يوجّه طموحه إلى الخلق والإبداع، أكثر من توجيهه إلى التّقليد والتّكديس.[5]

أمّا كتب المصلحين فكانت سمتها الغالبة الجدال والدّفاع، بدل أن تكون أفكارها ملهمة

1-مالك بن نبي، في مهبّ المعركة ص 140.
2- د/ عمار الطّالبي، ابن باديس حياته وآثاره ص 11.
3- المرجع نفسه (المدخل) ص 68.
4-مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية ص 83.
5- المصدر نفسه والصّفحة نفسها.

ومحرّكة للإنسان نحو البناء الحضاري، ولم تكن جمعية العلماء بعيدة عن هذا التّوجّه، فقد اتّبعت هي الأخرى أسلوب الجدال ضدّ المرابطين وضدّ المستعمر.

ولعلّ أهمّ أسباب فشل الإصلاح، هو أنّ المصلح كان ينقصه الالتزام، وكان عليه أن يبدأ بنفسه فيصلحها، قبل أن يصلح الآخرين، يقول مالك بن نبي: "لقد نسي المصلح في المدرسة أن يصلح نفسه... لهذا فشل"[1]؛ فقد صارت الحركة الإصلاحية تكوّن متخصّصين بارعين، بدل أن تكوّن دعاة مخلصين[2].

ولكن هذه الانتقادات لم تمنع مالك بن نبي أن يعترف لحركات الإصلاح بالفضل في يقظة العقل المسلم، ويقرّ لها ببعض الإيجابيات، ولعلّ أهمّها هو نزوعها إلى العقل، وظهور النّقاش الفكري[3]، ويتجلى هذا النّزوع في كتابين؛ أحدهما لجمال الدّين الأفغاني "الرّد على الدّهريين"، والثّاني لمحمّد عبده "رسالة التّوحيد."

لقد كنّا فعلا بحاجة إلى فكر جمال الدّين الأفغاني الثّوري، وإلى فكر محمّد عبده المنهجي العقلاني، وإلى فكر ابن باديس الذي سمح لنا أن نميّز بين الإسلام الحقيقي والخرافة؛ هذا كلّه إيجابي، لكن الإصلاح كانت تنقصه الفعالية في التّغيير والحركة، وبقي قائما في المناقشات الأدبية؛ فوقع في الحرفية الثّقافية واللّفظية (الغرام بالكلمات)[4]، وتمسّك بحرفية الدّين بدل روحه، فوقع في التّزمت، واتّجه نحو تكديس الأفكار بدل البناء والتّجديد[5] (التّكديس لا يكون للأشياء وحدها)، فلم يكن علماء الإصلاح في مستوى الأمانة العقلي؛ وقد تجلى ذلك مثلا حينما سلّموا –وهم أمناء على الشّعب- الأمانة لمن وضعها تحت قدمه؛ ليجعل منها سلّما يصعد عليه إلى المناصب السّياسية[6] (في إشارة إلى خوضها في السّياسة). وحتّى الحركة

1- مالك بن نبي، آفاق جزائرية ص 109.
2- د/ عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره (المدخل) ص 69.
3- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ص 56.
4- المصدر نفسه ص 58.
5-مالك بن نبي، آفاق جزائرية ص 225.
6- مالك بن نبي، مذكّرات شاهد القرن ص 368.

الوطنية فقد كانت "تستهدف أهدافا سامية، دون أن ترسم خطّتها، ودون أن تحدّد وسائلها؛ فأصبحت تتطوّر في جوّ من الفوضى، لا يصلح إلّا لمن يعمل من أجل مصلحته." [1] ولكن مالك بن نبي لم يخف تأثّره بالحركة الوهابية، بل إنّ انتسابه لحركة الإصلاح كان بسبب تأثّره بها، إذ يقول: "كنت أنتسب للطّرف الإصلاحي (بدل اليساري أو البورجوازي)؛ لأنّه كان يمثّل في نظري الصّورة الجزائرية للفكرة الوهابية، التي كنت أرى فيها منقذ العالم الإسلامي." [2] وذلك لأنّ هذه الفكرة كانت تحمل معها طاقة متحرّكة لتحرير العالم الإسلامي المنهار؛ ولذلك كان الاستعمار يخشاها.[3]

كان مالك بن نبي على قناعة تامّة بأنّ الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب هو مجدّد القرن الثاني عشر[4]، كما كان إعجابه بالملك عبد العزيز (مؤسّس الدّولة السّعودية) كبيرا؛ لأنّ عصره كان العصر الذّهبي للفكرة الوهابية[5]، لولا تدخّل الاستعمار لإيقاف إشعاعها الرّوحي[6]. ولكنّ الفكرة الوهابية فقدت حيويّتها وتأثيرها في النّفوس، وتحوّلت بدورها إلى وثن، واستخدمت في اللّعبة الإيديولوجية للمستعمر، وفي اللّعبة السّياسية لآل سعود بعد الملك عبد العزيز.

ومن الحركات الإسلامية التي كان لها وقع وأثر في نفسية مالك بن نبي، وكانت مصدرا للتّفاؤل عنده " حركة الإخوان المسلمين"، التي أسّسها الشّيخ "حسن البنا"، ولقد كان تأثيرها إيجابيا، حيث يقول عنها: "ولقد كان من أثر تلك الحركة، أن تجدّدت القيمة القرآنية في ذاتها، فصارت ناشطة، ووسيلة للتّغيير."[7]

أمّا عن شخصية حسن البنا، فقد كانت شخصية فذّة، مؤثّرة، قويّة، تربط بين الفكرة والعمل،

1- المصدر السابق ص 376.
2- المصدر نفسه ص 277.
3- المصدر نفسه ص 306.
4- د/ مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة ص 43.
5- المرجع نفسه ص 44.
6- المرجع نفسه ص 46.
7-مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ص 157.

وبين المبدأ والواقع، يقول بن نبي عن هذه الشخصية: "للرّجل قوّة خارقة، يجعل من الآية أمرا حيّا، ويملي على الفرد سلوكا جديدا..." [1]

لقد استطاع حسن البنا أن يرسّخ في النّفوس معنى الأخوة والمشاركة بين أعضاء المجتمع الواحد، مستلهما معانيها من القرآن الكريم، كما استخدم القرآن كفكرة موحاة لا كفكرة مكتوبة، "لقد تجلّت الحقيقة القرآنية –كما يقول مالك بن نبي- مع حسن البنا بأثرها المباشر على الضّمير." [2]

ب- <u>الاتّجاه الحداثي التّغريبي</u>: أمّا التّيار الحداثي، فقد درس أغلب زعمائه في الجامعات الغربية، لكنّهم لم يكتشفوا الثّقافة الغربية وروحها[3]؛ فالمستعمر ليس بهذه السّذاجة التي تجعله يقدّم ثقافته وروح حضارته لإنسان المستعمرات، وحتّى لو كوّن عقولا في العالم الإسلامي، فإنّ كفاءة هذه العقول محدودة[4].

لقد وقع الحداثيون هم كذلك في الشّيئية، فقنعوا بمعرفة طرق الحصول على أشياء الغرب بدل البحث عن كيفية إبداعها، وحتّى الأفكار فقد اكتفوا باستيرادها وتكديسها؛ فوقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه الإصلاحيون، "وكلّ ما هنالك أنّ المستغربين خلعوا على الشّكل القديم لمضمون ما بعد الموحّدين، شكلا حديثا." [5]

إنّ الطّالب المسلم (المستغرب) في الجامعات الغربية، لا يرى في أوربا كيفية تطوّر الحضارة، بل يرى نتيجتها فقط[6]، ولا يرى الطّاقات الخفية التي تخلق القيم (الدّفعة الخلّاقة)، كما لا يرى الجانب السّلبي، بل والمفزع للحضارة الغربية[7]، (فقدانها لمعنى الإنسان)، لم تعد

1- المصدر السابق ص 157.
2- المصدر نفسه ص 159.
3- المصدر نفسه ص 611.
4- المصدر نفسه ص 64.
5- المصدر نفسه ص 66.
6-المصدر نفسه ص 67.
7- المصدر نفسه ص 68.

الثّقافة الغربية ثقافة حضارة، بل ثقافة إمبراطورية، وتوسّع وسيطرة، ولم يدرك المسلم ذلك).

إنّ الحداثيين تعلّموا الثّقافة الغربية، ولكنّه تعلّم المقلّد الذي لا تجمعه بما يقلّده وبمن يقلّده أيّة صلة روحية، فهم لم يتذوّقوا الثّقافة الغربية[1]، ولا تربطهم بها أيّة علاقة وجدانية، ولم يكن همّهم تجديد العالم الإسلامي، وتحقيق النّهضة الحضارية، بل تحقيق فكرة سياسية مستعارة[2]؛ لذلك فقد افتقدوا للأصالة، واتّسموا بالسّطحية في التّفكير، وطريقة في الفهم حسيّة لمسية وليست عقلية، ولم يكن تقليدهم من أجل البناء بل من أجل التّكديس[3]، يقول مالك بن نبي: "إنّ تقليدنا (ويقصد تقليد المستغرب) ليس تقليدا لفعالية مجتمع ديناميكي (كما فعلت اليابان)، لكنّه تقليد لقالب فلسفي يصبح دفعة واحدة معاديا للإسلام." [4]

ومع هذا فلم يفكّر مالك بن نبي أنّ المحدثين أو الحداثيين، خلقوا تيارا من الأفكار صالحا للمناقشة، ليضعوا على بساط البحث جميع المقاييس التّقليدية فينقدوها[5].

وخلاصة أخطاء المصلحين والمحدثين معا: - أنّهم لم يتّجهوا إلى مصدر الإلهام وروح المنبع: روح الإسلام أو روح الثّقافة الغربية؛ وبالتالي لم يكن كلامهم قائما على ضرورة اجتماعية وإحداث أثر [6].

ولكن الاتجاه الإصلاحي هو الممثّل الحقيقي لفكرة النّهضة؛ لأنّه يركّز خاصة على الواجبات بدل الحقوق، ويدعو إلى العودة إلى الفكرة الأصيلة، التي كانت مصدر الخلق والإبداع في وقت من الأوقات في العالم الإسلامي.

1- المصدر السابق ص 68.
2- المصدر نفسه ص 71.
3- مالك بن نبي، آفاق جزائرية ص 225.
4- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 109.
5- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ص 73.
6- المصدر نفسه ص 70.

*ثالثا:

❋الإسلام والتّجديد الحضاري❋

1- الإسلام والعلاقات الاجتماعية: لقد ساعدت الدّفعة القرآنية مجتمع المدينة الجديد، الّذي أسّسه النّبي محمّد –صلى الله عليه وسلم-، "بهدم ما بداخله من حدود قبلية؛ ليؤسّس مجتمعا جديدا من الأشخاص، حيث أضحى حامل رسالة، وليبني عالما ثقافيا جديدا تتمحور فيه الأشياء حول الأفكار"[1]، ومجتمعا تحكمه الفكرة الإسلامية التي تقوم على الوحدة والتّوحيد، وعلى بناء صلة عمودية قويّة بين العبد وربّه؛ لتكون أساسا لصلة قويّة بين المؤمنين، ومقوّما جوهريا لبناء ثقافي جديد، ولشبكة علاقات اجتماعية جديدة.

إنّ مشكلتنا اليوم –كما يقول مالك بن نبي- " إنّما تتمثّل في تجديد الموثق أو الحلف القابل للاضطلاع من جديد، بإقامة الوحدة المعنوية للأمّة." [2]

إنّ الوحدة المعنوية للأمّة تتمثّل في الإسلام، تلك الرّسالة السّماوية التي قامت على المبدأ الأخلاقي الذي يتمثّل مضمونه في حبّ الخير وكره الشّر[3]، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿**كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.**﴾ [4]

إنّ رسالة الإسلام –كما يقول مالك بن نبي- "تقوم على الخير والأخلاق، وحتى القسمة الرّياضية للتّركة فيها إضافة روحية." [5]

ولكن علينا أن نعيد للفكرة الإسلامية فعاليتها، وقوّتها الحضارية، وحيويّتها الاجتماعية؛ حتى

1- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 40.
2- مالك بن نبي، آفاق جزائرية ص 204.
3- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار ص 24.
4- سورة آل عمران، الآية 24.
5- المصدر نفسه ص 25.

تعود إلى سابق عهدها في أداء وظيفتها الرّوحية، النّفسية، الاجتماعية، والحضارية، والإنسانية، و"علينا أن نزوّد القيم الإسلامية بما يجعلها قادرة على مواجهة روح العصر"[1]. ولقد ساد في ساحة الصّراع الفكري خطابان؛ -أحدهما هجومي على الإسلام، - والآخر تبريري خطابي جدلي، يفتقد إلى الفعالية والتّأثير؛ فلا يكفي الفكرة أن تكون صحيحة، بل علينا أن نجعلها فعّالة، و "ليس المهمّ الدّفاع عن أصالة الإسلام، بل إعادة فعاليته."[2] لابدّ من خلق ديناميكية اجتماعية جديدة، نستمدّ طاقتها من المبدأ القرآني، ولابدّ من غرس هذا المبدأ في النّفوس، وتحويله إلى سلوك اجتماعي فعّال؛ حتى لا يعيش المسلم انفصام الشخصية، والتّناقض بين المبدأ والواقع، بين عالمه الرّوحي (الصّلاة) وحياته الاجتماعية؛ لابدّ أن يكون هذا المبدأ هو الطّاقة التي يستمدّ منها المسلم الحركة في كلّ حين، فلا يفصل في حياته بين دينه ودنياه، فحياته كلّها لله: ﴿**قل إنّ صلاتي ونسكي، ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين.**﴾ [3]

لا يكفي إذن وجود فكرة لخلق ثقافة، وبناء حضارة، "فالفكرة كفكرة ليست مصدرا للثّقافة، بل إنّ فاعليتها ذات علاقة وظيفية بطبيعة العلاقة بمجموع الشّروط النّفسية والزّمنية التي ينطبع بها مستوى الحضارة؛" [4] بمعنى أنّه من الضّروري بناء علاقة عضوية، بين عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء.

إنّ جوهر الإسلام عامل إيجابي للتّحضّر، يصلح لكلّ زمان ومكان، إذا لم نخالف شروطه وقوانينه [5]، يقول تعالى: ﴿**فليحذر الّذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذاب أليم.**﴾ [6]، إذن فإنّه لابدّ من نهضة اجتماعية وثقافية، ترتبط بنفس شروط النّهضة

1- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار ص 112.
2- المصدر نفسه ص 118.
3- سورة الأنعام، الآية 162.
4- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية ص 47.
5- مالك بن نبي، شروط النّهضة ص 65.
6- سورة النّور، الآية 14.

الإسلامية الأولى، التي حرّكتها الرّوح القرآنية، "فلا يصلح آخر هذه الأمّة إلّا بما صلح به أوّلها." -كما في الحديث النّبوي-، و "لا نصنع التّاريخ باقتفاء دروب الآخرين، بل بصناعة دروب جديدة." [1]، وهذه الدّروب الجديدة لابدّ أن تستمد طاقتها وروحها من الإسلام. إنّ فاعلية الفكرة الإسلامية، ترتبط بقوّة ومتانة العلاقات الاجتماعية، ومتانة هذه العلاقات مرتبطة بتأثير هذه الفكرة في النّفوس، "إنّ المجتمع العربي قد هبّ فجأة لينتج حضارة رائعة، منذ بدأ نشاطه يستقطب حول مجموعة من القيم الخلقية التي وحّدت نطاقه." [2]، لقد ربط الإسلام بين أهداف السّماء وضرورات الأرض[3]، واستطاع بفضل هذا الرّباط القويّ (حبل الله المتين) أن يغيّر الفرد والمجتمع والنّفس[4].

لابدّ أن نحوّل الفكرة القرآنية إلى حقيقة عاملة مفكّرة، حتّى لا تبقى مجرّد مفاهيم مجرّدة، "يجب تنظيم تعليم القرآن الكريم تنظيما يوحي معه من جديد إلى الضّمير المسلم الحقيقة القرآنية، كما لو كانت جديدة نازلة من فورها من السّماء على هذا الضّمير." [5]

لقد بدأت أوّل بوادر سقوط العالم الإسلامي مع بداية أفول الرّوح، بالانفصال الأوّل بين السّياسي والأخلاقي، ومع ذلك فقد استطاع أن يحافظ على بقائه بعد تلك الأزمة؛ بفضل ما تبقى فيه من دفعة قرآنية حيّة[6]، "فلمّا أوهنت (الدّفعة القرآنية) توقف العالم الإسلامي."[7] إنّ في الإسلام قوّة حيويّة؛ تبعث الحياة في النّفوس والضّمائر، وتهب المجتمع البشري تماسكا وروحا جماعية، بحيث لا يخضع فيه الفرد لمزاجه، بل للنّظام الاجتماعي العام،

1- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 162.

2- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص 52.

3- المصدر نفسه ص 79.

4- المصدر نفسه ص 80.

5- المصدر نفسه ص 114.

6- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ص 30.

7- المصدر نفسه ص 31.

.

والإرادة الجماعية[1] -بتعبير روسو- .

إذن فلابدّ من تحوّل ديناميكي منذ البداية، تغذيه الفكرة القرآنية، ولكن شرط أن نجدّد صلتنا بالله، "فليس المطلوب –كما يقول إقبال- العلم بالله بل الاتصال بالله."

2- <u>الإسلام والسّياسة</u>: - إنّ التّغيير السّياسي في الإسلام مرتبط بالتّغيير الاجتماعي والفردي، بمعنى أن السّياسة لابدّ أن تمتدّ جذورها إلى الروح التي أنتجت الدّفعة الحضارية، أي إلى المبدأ الأخلاقي، يقول مالك بن نبي: "إنّ السّياسة التي لا تمتدّ جذورها في روح الشّعب، لا يمكن أن تنتج فعلا جماعيا خلّاقا."[2]

وبالتالي فإنّ تطوير الدّولة مرتبط بتغيير النّفس، " فالمشكلة تطرح من الجانب النّفسي أكثر من الجانب المؤسّساتي، إنّها مشكلة البيئة العقلية للفرد." [3]

إنّ السّياسة هي عمل الجماعة المنظّمة في الدّولة، فلابدّ أن ننظّم أنفسنا، بتحقيق ثلاثة شروط: تصوّر العمل السّياسي، حماية العمل السّياسي، خلق نظام حماية لهذا العمل السّياسي[4]. ولكن لابدّ أن يخضع هذا العمل لتوجيه المبادئ الأخلاقية والدّينية (الإسلام)، ولابدّ من إيديولوجيا اجتماعية، تخلق محيطا من الانسجام بين الفرد والمجتمع، وبين الحاكم والمحكوم، وبين المواطن والدّولة، "فلنجاح أيّة سياسة، لابدّ أن تتدفّق في عمل كلّ فرد في الدّولة" [5]. ولقد كان الإسلام دائما هو الدافع الإيديولوجي لكلّ حركية اجتماعية وسياسية؛ وعندما نتحدّث عن الإيديولوجيا، لا نتحدّث عن أفكار مشتّتة، بل عن أفكار محرّكة للطّاقة، وموجّهة لها نحو مسارها الصّحيح؛ لتلعب دورها الإيجابي في التّاريخ. [6]

1- المصدر السابق ص 42

2- Malek Bennabi ; Les grands thèmes (op) p 92.
3- Malek Bennabi, Articles de presse (op) p 12.
4- Malek Bennabi, Pour changer l'Algérie (op) p 30.
5- Ibid p 32.
6- Malek Bennabi, les grands thèmes (op) p 95.

وعليه فلابدّ على السّياسيين في العالم الإسلامي، أن يدركوا أنّ أيّة سياسة لا تدفعها إيديولوجية تعتبر سياسة فاشلة، وأيّة إيديولوجية لا يدفعها الإسلام وروح القرآن تعتبر إيديولوجية فاشلة أيضا، " فالإيديولوجيا تحتاج إلى دافع آخر للحفاظ على فعل الدّولة... إنّه من جوهر أخلاقي ميتافيزيقي ديني."[1]

إنّ الإسلام –يقول مالك بن نبي- "كان راية كلّ عمل بطولي، والدافع الإيديولوجي للشّعب الجزائري، وفشل السّياسة مردّه إلى إهمالهم ونسيانهم الإسلام كدعامة إيديولوجية محرّكة بعد الاستقلال"[2]. ولكن -يؤكّد مالك بن نبي- التّغيير الحقيقي في المجال السّياسي، أو ما يسمّى بالثّورة، يبدأ أوّلا بالنّقد الذّاتي، والاعتراف بأخطائنا وانحرافاتنا، بدل أن نصبّ نقدنا على الآخر؛ فلابدّ أن نتخلّص من عقلية التّبرير، يقول مالك بن نبي:"إنّ نقدنا الذّاتي لا يبدأ في وعي الآخر ولكن في ضميرنا"[3]. لابدّ من دراسة اجتماعية لانحرافاتنا، أو ما يسمّى في مصطلح مالك بن نبي "سوسيولوجيا المرض".

إنّ الاعتراف بالخطأ هو بداية التّوبة، ومن ثمّ فهو بداية التّغيير، وإنّ "أكبر فعل ثوري في تغيير الإنسان وتحريره"[4]. ولكن حذار! "فقد تتحوّل الثّورة إلى نقيض الثّورة، ويأخذ التّغيير الكاذب مكان التّغيير الحقيقي... وتنحرف الثّورة عن مسارها"[5]. إذن فإنّ الخوف من التّغيير الكاذب، من الثّورة المضادة، كما هو حال ثورات ما يسمى "بالرّبيع العربي"، ثورة مضادة في مصر، وانحراف في ليبيا، وخراب في الشّام؛ وقبلها تغيير كاذب في العراق، لماذا؟!

1- Malek Bennabi, Articles de presse (op) p 36.
2-Malek Bennabi, Pour changer l'Algérie (op) p 37.
3- Malek Bennabi, Articles de presse (op) p 229.
4- Malek Bennabi, Pour changer l'Algérie (op) p 43.
5- Malek Bennabi, Articles de presse (op) p 44.

لأنّ الثّورة لا تنجح إذا لم تغيّر الإنسان في سلوكه، أفكاره، وفي كلامه أيضا[1]. وحتى تغيّر الثّورة الإنسان عليها أن تقوم على أسس أخلاقية؛ هكذا حدثت الثّورة التي قادها النّبي محمّد(صلى الله عليه وسلّم)، فقد كانت ثورة ضدّ طغيان النّفس أوّلا، وأوثان الفكر، قبل أوثان الأشياء؛ ولذلك فإنّ النّبي محمّد –صلى الله عليه وسلّم- لم يهدم الأصنام في مكّة حتى هدمها في النّفوس، "فلا توجد ثورة تستطيع تغيير الإنسان إذا لم تقم على أسس أخلاقية متينة."[2] إنّ الثّورة النّاجحة هي التي لا تتوقّف حتى تحقّق أهدافها، وتصحّح أخطاءها باستمرار، "فالثّورة التي تتوقّف في وسط الطّريق، أو التي تخشى أن تصحّح أخطاءها، مآلها الفشل."[3] لماذا فشلت –مثلا- سياسة الجزائر بعد الاستقلال؟ لقد انحرفت الثّورة فعلا عن مسارها، وكان يعوزها التّخطيط لما بعد الثّورة؛ فالثّورة لا تحدث عفوا، ولكنّها سيرورة طويلة: -ما قبل الثّورة، -الثورة، -وما بعد الثّورة؛ تحضير ثمّ مسيرة ثمّ ثبات. لقد غيّرت ثورة الإسلام في عهد النّبي محمّد-صلى الله عليه وسلّم- كلّ شيء حتّى الأسماء، وعلّمتنا معنى الالتزام؛ فلا يجب أن يشارك في الثّورة إلّا من اقتنع بها، ولا يجب أن يتغلغل فيها المثبطون والغرباء عنها، كحال المنافقين في عهد النّبي (صلى الله عليه وسلم)؛ لأنّهم خطرعليها[4]. إنّ للثورة منهجا يتضمّن مبادئها الثابتة، وقراراتها التي تناسب الظّروف[5]؛ وهذه القرارات قابلة للتّعديل والتّصحيح في كلّ مرّة. على الثورة إذن أن تلتفت إلى أخطائها وتصحّحها؛ حتى لا تنقلب إلى ثورة مضادة، وحتى لا تغيّر مسارها، "فالثورة التي تخشى أخطاءها ليست ثورة، والتي تلتفت عن أخطائها بعد اكتشافها، فذاك أدهى"[6].

1- Ibid p 47.
2- Ibid p 52.
3-Ibid p 55.
4- Ibid p 231.

5- مالك بن نبي، بين الرّشاد والتيه، دار الوعي للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الثانية 2012 ص 16.
6- المصدر نفسه ص 18.

إنّ هدف الثّورات المعاصرة إمّا محاربة الاستعمار أو محاربة الاستبداد، وإقامة نظام سياسي ديمقراطي. فما هي الدّيمقراطية في الإسلام؟ وما هي شروط تحقّقها –حسب مالك بن نبي- ؟

- الدّيمقراطية في القاموس الفرنسي هي حكم الشّعب، أي أنّها في معناها البسيط تقوم على فكرة الحقّ، أمّا الإسلام فإنّه يقوم على فكرة الواجب[1]؛ فهل هذا يعني أنّهما متعارضان؟ لابدّ أن ننظر إلى الدّيمقراطية، في تحديدنا لمفهومها إلى نقاط ثلاث: -هي شعور نحو الذّات -شعور نحو الآخر- الشّروط الاجتماعية والسّياسية الضّرورية لتكوين وتطوير ذلك الشّعور عند الفرد، "فلا يمكن أن تتحقّق الدّيمقراطية كواقعة سياسية إذا لم تنطبع في ذات الفرد، في بنية شخصيته، وإذا لم توجد في المجتمع." [2]

إنّ الدّيمقراطية في سيرورتها هي حدّ نفسي، تحته يظهر شعور العبد، وفوقه شعور المستبد، والإنسان الحرّ المواطن صاحب الكرامة، هو إثبات بين منفيين، أي بين شعور العبودية وشعور السّيطرة[3]؛ أمّا العبد فهو ينفي ذاته، وأمّا المستبدّ فهو ينفي الآخر. وعليه فإنّ الدّيمقراطية في الإسلام ليست مجرّد نقل السّلطة للشّعب، استنادا إلى دستور، بل هي تكوين للشّعور[4]، ومصدر هذا الشّعور الدّيمقراطي هو روح الإسلام؛ فالإسلام يعطي للفرد قيمة تتجاوز القيمة السّياسية (كما في الدّيمقراطية اللّيبرالية الغربية)، وتتجاوز أيضا القيمة الاجتماعية (كما في الدّيمقراطية الاشتراكية)[5]، إذ هو يرى في الإنسان حضور الله، فديمقراطيته تقديسية، على عكس الدّيمقراطية الغربية العلمانية.

إنّ الفرد في الدّيمقراطية الإسلامية يحمل في نفسه تكريم الله له، فيشعر بهذا التّكريم في ذاته

1-Malek Bennabi, Les grands thèmes (op) p 104.
2-Ibid p 105.
3-Ibid p 107.
4-Ibid p 110.
5– Ibid p 111.

وفي الآخرين؛ "فلا يكون عبدا إلّا لله، ولا يستعبد غيره لأنّه يؤمن بالله." [1] أمّا الحقوق الفردية فما هي إلّا نتيجة للشّعور الدّيمقراطي، أي أنّها شعور بقدر الإنسان، فما فائدة ديمقراطية تعطي الفرد الحقوق السّياسية، ثمّ تدوس عليها بالتّحالفات والصّراع حول المصالح؟[2]

و لأنّ الدّيمقراطية في الإسلام تقوم على الشّعور الدّيمقراطي، الذي يغذّيه الإيمان بالله، وشعور بكرامة الإنسان يغذيه شعور بعظمة الله ورحمته وعدله؛ فقد كان الإسلام أوّل من طرح مشكلة تحرير العبيد، حيث جاء في الحديث النّبوي: " أوصاني خليلي جبريل بالرّفق بالعبيد." وفي القرآن دعوات كثيرة إلى فكّ الرّقاب[3]، كما أسّس الإسلام لمبدأ المساواة: "كلّكم لآدم وآدم من تراب." [4] أمّا عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فإنّها تقوم على الحقّ والواجب، الطّاعة لأولي الأمر، وتقويمهم إن اعوجّوا[5]؛ إذن هناك شعور بالمسؤولية والالتزام بالمبدأ الأخلاقي عند الحاكم والمحكوم. أمّا الحرية فهي مكفولة؛ حريّة العقيدة، فلا إكراه في الدّين، حريّة العمل والتّنقّل، وحريّة التّعبير، ولكن في حدود الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر[6]؛ فإنّ الأولوية للمجتمع على الفرد.

ثمّ إنّ العدل أساس الحكم في الإسلام، ويشمل عدل الإسلام المؤمن والكافر، ولا مجال لاستبداد الحاكم؛ فهو يبايع من طرف حكماء الأمّة الّذين يمثّلون الشّعب، ويعزل إن انحرف، يقول مالك بن نبي: "إنّ الحكم في الإسلام ديمقراطي في مصدره، وفي ممارساته." [7] إنّ الإسلام يعطي للفرد المسؤولية في صنع الحكم، فالشّعب مصدر السّلطة، ويعطيه أيضا

1- Ibid p 112.
2- Ibid 113.
3- Ibid 115.
4- Ibid 116.
5- Ibid p 117.
6- Ibid p 117-118.
7- Ibid p 120.

الضّمانات اللّازمة ضدّ التّعسّف.[1] وانطلاقا من هذه المعايير، هل نستطيع أن نقول بأنّنا أسّسنا للنّظام الدّيمقراطي؟ الجواب: لا.

إنّ النّظام الدّيمقراطي هو ثمرة الوعي الدّيمقراطي الرّاسخ في النّفوس، هو تقدير لقيمة الإنسان وكرامته، وهو شعور بالواجب تجاه الآخر؛ فهو التزام فردي واجتماعي. أمّا نحن فمازال في نفس كلّ فرد فينا، شعور بالنّقص والاستعباد تجاه الآخر الّذي يتفوّق علينا، وشعور بالعظمة والاستبداد تجاه إخواننا؛ فالفرد المسلم مستبدّ وعبد في نفس الوقت، نرى ذلك في سلوك حكامنا، الّذين يترفّعون على شعوبهم، ويحطّون من قدرهم أمام الآخر الغربي، وربّما ينحنون له، وكأنّه صاحب فضل عظيم عليهم؛ لم نعد أعزّة على غيرنا أذلّة على إخواننا، بل نحن أعزّة على إخواننا أذلّة على غيرنا.

إنّ السياسة الحقيقية هي التي توقد الضّمير، ولكن لا نقصد الضمير الطّبقي، الذي يتحدّث عنه الرأسماليون والاشتراكيون، والذي يهدف إلى تحقيق مصالح مادية صرفة، ويقوم على فكر موضوعي تبريري[2]؛ وإنّما نقصد الضمير الأخلاقي، الذي لا تحكمه المصالح العاجلة، الضمير الذي يحقّق التّجانس بين الفرد والأمّة[3]، ويوحّد المسوّغات، ويصحّح الأخطاء؛ "فمن يندم يتقدّم"[4].

لقد انهزم العرب في حرب 48 وحرب 67، لكنّ قياداتهم السياسية لم ترق بالمشكلات إلى مستوى الحضارة؛ وبدل أن تستخدم الأشياء والأشخاص في خدمة ثقافة الأمّة وحضارتها، استخدمتها لخدمة نهمها وعطشها للحكم، أما القيادة الصهيونية " فكانت تتحرّك وتحرّك حولها الأشياء، طبقا لما تمليه ثقافة حضارة"[5].

1- Ibid, la même page.

2-مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه ص 76.

3-المصدر نفسه ص 84.

4- المصدر نفسه ص 123.

5-المصدر نفسه ص 32.

إنّ المطلوب من قادة الأمّة أن ينظروا إلى المشكلات من زاوية حضارة، وأن ينظروا إلى قضايا الأمّة استنادا إلى معيار الواجبات لا معيار الحقوق، وعلى أنها أمانة ومسؤولية، وأن مصلحة الأمة فوق جميع الاعتبارات[1].

3- <u>الإسلام والنّهضة الاقتصادية</u>: بات من الضّروري أن نربط المشكلة الاقتصادية بالعوامل النّفسية، الاجتماعية والثّقافية، أي بعالم الأشخاص وعالم الأفكار؛ فالمشكلة الاقتصادية هي مشكلة إيديولوجيا بالدّرجة الأولى، ولها علاقة بالتّحوّل الدّيناميكي للمجتمع، وبالفعالية الفردية[2].

وحينما نتحدّث عن الفشل والتّخلّف الاقتصادي، فإنّنا نتحدّث عن فشل التّجربة الأخلاقية والاجتماعية؛ فالاقتصاد لا يقوم على التّخطيط والأرقام فقط، ولكنّه ثمرة التّوفيق بين العلم والضّمير، وبين العقل والرّوح[3]؛ وبالتالي فلابدّ أن نكيّف المعادلة الاقتصادية مع المعادلة النّفسية، "فإنّ أيّ نظام اقتصادي توجّهه القوى الأخلاقية التي تخلع عليه تفسيرا إنسانيا وغاية تاريخية."[4]

إنّنا بحاجة إلى أن نقيم اقتصادنا على أساس الواجب، على عكس الأنظمة الاقتصادية في الغرب (الشّيوعية والليبرالية)، فهي تقوم على أساس الحقّ[5]. لقد رفضنا الأنظمة الغربية؛ لأنها لا تتوافق معنا، فاقتصادنا لا هو اشتراكي ولا هو رأسمالي، فلم يتعلّق بالمنفعة الرّأسمالية و لا بالحاجة الاشتراكية[6]، ولا نستطيع تحقيق انسجام بينهما.

1-المصدر السابق ص 33.

2- Malek Bennabi, Articles de presse P 152.

3- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية ص 162.

4-المصدر نفسه ص 166.

5- Malek Bennabi ; La réalité et le devenir p 94.

6- Malek Bennabi, Le musulman dans le monde de l’économie (op) p 70.

إنّ ارتباط الاقتصاد الإسلامي بالمبدأ الأخلاقي يتجلى في فريضة الزّكاة، التي يلزم بها الغني، وتعطى للفقير كحق له، وتتكفّل الدّولة بتوزيعه؛ فالهدف اجتماعي أخلاقي بالدّرجة الأولى، حيث أنّ كلّ الأفواه لابدّ أن تطعم، وكلّ السّواعد لابدّ أن تعمل، والثّروة لا يجب أن تكون دولة بين الأغنياء. إنّ الإسلام يرفض سلطة المال والاحتكار، والطّغيان الاقتصادي، والتروست الصّناعي[1]؛ فهو يرفض طغيان الطّبقة البورجوازية على العامل البروليتاري، ويرفض دكتاتورية الطّبقة العمالية في النّظام الشّيوعي، كما يرفض الأهداف المادية البحتّة لكلا النّظامين الاقتصاديين. لقد فشلنا اقتصاديا؛ لأنّنا استوردنا أنظمة اقتصادية لا تعبّر عن روح الإسلام ولا تتوافق معها؛ لذلك علينا أن نغيّر الإنسان أوّلا كشرط لكلّ تغيير اقتصادي[2]، وإلّا وقعنا في الاقتصادوية l'économisme والتّكديس.

إنّ لدينا إمكانيات اقتصادية، أو ما يسمى "بالإمكانيات الحضارية"، لكنّها لا تنتج حضارة، ولا نهضة اقتصادية، وقد لا تكفي لإشباع كلّ الحاجات؛ لذلك لابدّ من إرادة حضارية لإشباع كلّ الحاجات، وهذه الإرادة الحضارية تغذيها القيم الأخلاقية (ضرورة أخلقة الاقتصاد)، يقول مالك بن نبي: " إنّ أيّة معركة اقتصادية لابدّ أن تندلع حول القيم الاقتصادية." [3]

لقد أصبح اقتصادنا رهن التّمويل الغربي، ففقدنا سيادتنا، وفرض علينا نوع من الاستلاب[4]؛ لابدّ إذن من تفعيل كلّ الطّاقات البشرية، وكلّ المصادر الموجودة، وكلّ السّواعد، وتوجيهها نحو غاية واحدة، بحيث يدفعها مبدأ ديناميكي واحد يؤثّر في النّفوس، ويدفع إلى العمل

1- Malek Bennabi, les grands thèmes (op) p 122.

2- Malek Bennabi, Le musulman dans le monde de l'économie (op) p 107.

3- Ibid p 145.

4- Malek Bennabi, Articles de presse (op) p 139.

والإبداع. إنّ نهضتنا الاقتصادية، لا ينفع معها الاستثمار الكلاسيكي الذي يعتمد على القدرة المالية وقوّة الشراء، وإنّما يعتمد على الاستثمار الاجتماعي الذي أساسه قوّة العمل[1]؛ أي الاستثمار في الإنسان، فرغم ما تملكه الدول العربية البترولية من أموال، ومن احتياطي صرف يصل إلى مئات الملايير من الدّولارات؛ فإنّها لم تحقّق حتى الآن نهضة اقتصادية حقيقية، ومازالت لا تصنع منتوجات الحضارة، بل تستورد منتوجات الحضارة الغربية؛ " فالتنمية لا تشترى من الخارج بالعملة الصعبة".[2] علينا إذن أن ننتج قيمنا الأخلاقية، الاجتماعية والثّقافية، التي هي أساس كلّ نهضة اقتصادية (التّخلّف الاقتصادي مبطن بالتّخلّف الذّهني).

1-مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه ص 191.
2- المصدر نفسه ص 195.

رابعا:

❋رسالة المسلم المعاصر في ظلّ تحدّيات العولمة❋

إنّ الإنسان الغربي المتحضر بدأ يشعر بالأزمة الثّقافية، وبفقدان المبرّرات في المجال النّفسي، ومبرّرات وجوده؛ الرّوحية، الاجتماعية، والموضوعية، ولم يستطع تعويض المبرّرات القديمة بطرق مشروعة؛ فحدثت الأزمة الوجودية، حيث عالم اللاّمعنى واللامعقولية. لقد بلغ الإنسان الغربي ذروة التّقدّم المادي، لكنّه فقد تقديره للإنسان، وصارت روحه خاوية "فإنّ البطون إذا شبعت قد تبقى الأرواح متعطّشة، متطلّعة، وحين لا تجد وجهة تتطلّع إليها تفضّل الاستقالة من الحياة."[1] إنّ السّويد من أكثر الدّول تقدّما من الناحية المادية، لكنّها تتصدّر إحصائيات الانتحار؛ فقد فشل الغرب نفسيا، ومن مظاهر هذا الفشل: التّدهور الأخلاقي، الإدمان، انهيار القاعدة الاجتماعية، تفكّك الأسرة، وانهيار الشّباب...[2] لقد حان الوقت ليفسح الغرب المجال لتجربة إنسانية بديلة، بعد أن أفلس[3]، ولن يجد غير تجربة الإسلام؛ فقد فقدت الدّيانات الأخرى مبرّرات وجودها، بما فيها المسيحية التي شرعت في غلق أبواب أديرتها وكنائسها[4].

وعليه فإنّ دور المسلم المعاصر، أن يغيّر نفسه أوّلا، ويجدّد حضارته من داخل؛ فيرتفع بمستواه الحضاري إلى مستوى الحضارة الغربية، ثمّ يضيف بعد السّماء إلى الحضارة العلمانية[5]. وهكذا ترتفع الحضارة الإنسانية كلّها إلى قداسة الوجود[6]؛ وبذلك ينقذ المسلم نفسه

1- مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثّلث الأخير من القرن العشرين، دار الوعي للنّشر والتّوزيع –الجزائر- الطّبعة الأولى 2013 ص 16.

2- المصدر نفسه ص 17.

3- المصدر نفسه ص 19.

4- المصدر نفسه ص 23.

5-المصدر نفسه ص 28.

6- المصدر نفسه ص 21.

وينقذ الآخرين معه. ولتحقيق أهداف هذه الرّسالة، لابدّ أن يحقّق المسلم في نفسه شروطا هي: أن يعرف نفسه- أن يعرف الآخرين دون تعال أو تجاهل- أن يعرّف الآخرين بنفسه بعد تصفيتها من رواسب القابلية للاستعمار ومن التّخلّف[1]. على المسلم أن يحمل رسالة الإسلام العالمية، من خلال ما قدمته لأنسنة الإنسان، ومن خلال ما يمكن أن تقدمه أيضا، شرط أن توافق ضمائر حية، وفية لديناميكيتها الأصيلة[2].

إنّ باستطاعة الإسلام - كدين شامل مكتمل – أن يذكّر إنسان هذا العصر بأبعاده الضائعة: التسامي (الصلة بالله)، و الروح الاجتماعية (الأمة)[3]؛ وهذا ما يجعل لحياتنا معنى.

إن الثقافة الغربية اليوم-وهي الثقافة المسيطرة – في عمومها وضعية في العلم، عدمية في الأدب و الفن، و في كلا الحالتين،فإنّها لا تساعد الإنسان في إيجاد معنى لحياته و تاريخه؛ و لذلك فإنها تؤدي إلى الفر دانية، و إلى توازن الرعب بين الأمم. إنّ ثقافة كهذه تؤدي بالفرد إلى اليأس، و بالمجتمعات إلى التفكك، و تنتج مجال المواجهة الدائمة بين إرادات النمو و بين إرادات القوة و السيطرة [4]. لقد بدأ الغرب العلماني يشعر بنفاد مبرّراته الروحية، الاجتماعية، والموضوعية، وبضرورة استبدال مبرّرات أخرى بها؛ ولكنّه فشل في تحقيق ذلك بالطّرق المشروعة[5]، وهو اليوم يفقد قاعدته المتينة المتمثّلة في الشباب، الذي ضاع إما في متاهات الخمّارات والمخدّرات، أو في المقابر عندما ينتحر؛ فلم يعد لحياته معنى[6]. وعليه فإنّ الإرادة الحضارية للغرب، بدأت تتضاءل شيئا فشيئا، حتى تزول نهائيا، رغم تضخّم الإمكان

1- المصدر السّابق ص 43-44.

2- Roger Garaudy, le message de l’islam (op) p 96.

3- Ibid p 97.

4- Ibid p 105.

5- مالك بن نبي، مجالس دمشق ص 164.

6- المصدر نفسه ص 166.

الحضاري (الرفاهية المادية)، وقريبا سيترك مكانه لتجربة بديلة، ولا يوجد اليوم أفضل من الإسلام، ليتولى قيادة مسار الحضارة وحركة التاريخ؛ فالتاريخ "يجب أن ينتهي في نقطة ما، كي يتجدّد في نقطة جديدة." [1]

إذن لابدّ أن يعيد الإسلام للإنسانية بعدها الروحي، السماوي السامي للإنسان، ولكن على المسلم أن يكون في المستوى، و يضطلع بالأمانة الثقيلة الملقاة على عاتقه. صحيح أنّ المسلم اليوم لا يملك شيئا، وكذلك كان الرسول محمّد -صلى الله عليه وسلّم- هو وأصحابه، أمّيين، بدوا فقراء، لكنّهم اضطلعوا بإنقاذ الإنسانية، ولم يشعروا يوما بمركّب نقص؛ فقد كانت لديهم إرادة حضارية، واقتناع بنبل وثقل الرسالة الملقاة على كاهلهم " إنّها أمانة". لذلك فإنّ على المسلم أن يؤمن برسالته العالمية، ويقتنع بضرورة أدائها، وبضرورة إقناع الآخرين بها. [2]

1- المصدر نفسه ص 167.
2- المصدر نفسه ص 180-181.

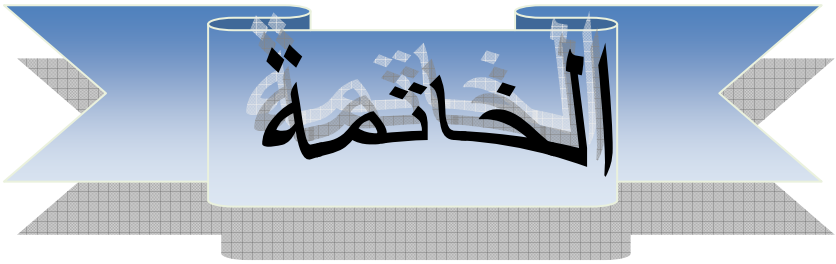
الخاتمة

الخاتمة:

نستنتج من البحث أنه لا يمكن بناء حضارة دون أن نركّب بين عناصرها الثلاثة: الإنسان-التراب-الزمن، و أنّ الفكرة الدينية هي الوحيدة القادرة على أن تلعب دور المركب، خاصة إذا قامت على مبدأ غيبي ميتافيزيقي. كما أنّ محور التجديد الحضاري هو الإنسان، فلا يمكن أن يحدث التغيير إذا لم يغير الإنسان نفسه، و لا يمكن أن يكون هناك منتوج ثقافي و إبداع حضاري، إذا لم نؤسس لديناميكية اجتماعية، و عمل مشترك يدفعه مبدأ أخلاقي واحد، و يسعى إلى هدف واحد.

و ينتج عن هذا، أنّ أزمة التخلف ليست أزمة وسائل و إمكانيات حضارية، بل أزمة إرادة حضارية؛ أي أنها أزمة حضارة وثقافة بالدرجة الأولى (لا نقصد بالثقافة المنتوج الثقافي بل أسلوب الحياة الاجتماعي و الفعالية الفردية)، و هذا يعني أنها أزمة إنسان، وأزمة قيم أخلاقية انفصلت عن العمل، أزمة الروح التي أفلت و تركت مكانها للغرائز التي أفلتت من عقالها، أزمة فكرة فقدت فعاليتها الفردية و الاجتماعية، و غابت عن ساحة التاريخ؛ لأنها لم تعد تؤدي دورها الحضاري .

وعلى هذا، فلكي يخرج العالم الإسلامي من التخلف، لا بد له من انطلاقة حضارية جديدة، تقوم على إعادة إحياء الفكرة القرآنية، وتجديد المبدأ الإسلامي الذي كان فيما مضى يمثل الطاقة الروحية، و الدفعة الحيوية -l'élan vital- -بتعبير برغسون- نحو البناء الحضاري. إذن لابدّ من إعادة إحياء هذه الروح في النّفوس، وبعثها في الضّمائر، وكأنّها تظهر أوّل مرّة، حتى يبدو حينما نقرأ القرآن وكأنّنا نقرؤه أوّل مرّة، وكأنّه أنزل علينا؛ فيجعلنا نشعر بثقل الأمانة التي تنوء بها الجبال، وتشفق منها السماوات والأرض، ويدفعنا إلى الالتزام الأخلاقي، الاجتماعي والحضاري، ويرفع مستوانا الحضاري؛ حتّى نكون أهلا لأداء الرسالة العالمية التي يحملها الإسلام، وإنقاذ الإنسان من شرّ نفسه.

إنّ النّموذج الغربي للنّمو والتّقدّم، سيؤدي إلى انتحار كوني؛ حيث لم يدع مجالا للأمل بالنّسبة

للفئات المقهورة، وتولّدت عنه ثورات لليأس والقنوط؛ يكفي أن نعلم أنّه وضع على رأس كلّ إنسان على وجه الأرض، ما يعادل خمسة أطنان من المتفجّرات. إنّ النّموذج الغربي يسير بالإنسان إلى حياة أو موت بلا معنى أو هدف، ويحمل في طياته بذور الفناء والموت[1]، كما يحمل في طياته تصوّرا جافا للعلاقات الإنسانية، تقوم على فردانية بلا غاية، وعلى تنافس اقتصادي جشع، يحكمه قانون الانتخاب الطبيعي والبقاء للأقوى[2]. إنّ الإيديولوجيا الغربية، تقوم عل انفصال العلم والتّقنية (التّقدّم المادي) عن الحكمة والقيم الروحية (التّأمل في الغايات ومعنى الحياة)[3]؛ أي أنّها تقطع عن الإنسان أبعاده الإنسانية: -البعد السماوي (فكرة التسامي)، وبعد الأمّة أو الجماعة (شعور كلّ شخص بمسؤوليته عن مستقبل الآخرين). بهذا النّهج، فإنّ النّمو الوحيد الذي يشهده الإنسان، هو نمو البؤس؛ البؤس المادي عند الشعوب المتخلّفة، والبؤس الروحي عند الغرب[4]، ولن يجد الإنسان بديلا آخر غير الإسلام؛ فالإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يفصل في مشروعه الحضاري، الإلهي عن الإنساني، الروحي عن المادي، البعد الأخلاقي عن البعد الجمالي والمنطق العملي والتّقنية، إنّه -كما يقول المفكّر الفرنسي "روجي غارودي"-:"يقدّم الأساس الأكثر متانة للشعور بالمسؤولية والحرية الإنسانية"[5].

لقد استطاع الإسلام أن ينتشر بقوّة كبيرة وسرعة هائلة؛ والسّبب في ذلك هو أنّه أعطى شعوبا مفكّكة لم تكن لها أيّة وجهة، معنى الحياة[6]، ومعنى الوحدة والأخوّة داخل الأمّة، مع ربط تلك الوحدة بفكرة التوحيد (المبدأ الروحي)؛ ليفتح آفاقا جديدة، وأبواب الأمل لكلّ المستعبدين (من استعبدته أهواؤه أو أفكاره، أو استعبده الاستبداد أو الاستعمار).

1- Roger Garaudy, Promesses de l’Islam, Edition du seuil, Paris VI, 1981, p 20.
2- Ibid p 21.
3- Ibid même page.
4- Ibid P 22.
5- Ibid p 30.
6- Ibid p 31.

وخلاصة القول أنّ أيّ تغيير حضاري لن يتحقّق، إذا زعم الإنسان أنّه يغيّر كلّ شيء دون أن يغيّر نفسه، وأنّ تغيير الإنسان لن يتحقّق، إلا إذا ربطنا هذا الإنسان بالمطلق (الفكرة الدينية). [1]

1- Ibid p 72.

قائمة المصادر والمراجع

1- المصادر:

✷ مالك بن نبي:

أ- باللّغة العربية:

☜آفاق جزائرية، ترجمة الطّيّب الشّريف، مكتبة النّهضة، الجزائر، الطّبعة 1991.
☜بين الرّشاد والتيه، دار الوعي للنّشر والتوزيع (الإعادة السابعة للطّبعة الثانية) 2012.
☜تأمّلات، منشور أصلا من قبل دار الفكر المعاصر بيروت –ودار الفكر سوريا-، دار الوعي –الجزائر- الطبعة الأولى 2013 (صدر قسم منه سنة 1960 بعنوان: حديث في البناء الجديد، ثمّ قسم ثاني سنة 1961 بعنوان: تأمّلات في المجتمع العربي.
☜دور المسلم ورسالته في الثّلث الأخير من القرن العشرين، دار الوعي للنّشر والتّوزيع – الجزائر- الطّبعة الأولى 2013.
☜شروط النّهضة، ترجمة عمر كامل مسقاري وعبد الصّبور شاهين، دار الوعي للنّشر والتّوزيع –الجزائر- الطّبعة الأولى 2013.
☜فكرة الإفريقية الأسيوية، دار الفكر –الجزائر- بالتّعاون مع الملكية للإعلام والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الثّالثة 1992.
☜في مهبّ المعركة، ترجمة المؤلّف، الطّبعة الأولى بالجزائر 1991 –بإذن من دار الفكر للطّباعة والتّوزيع والنّشر –دمشق-.
☜لبيك حجّ الفقراء (رواية)، ترجمة د/زيدان خوليف، دار الوعي للنشر والتّوزيع -الجزائر- الطّبعة الأولى 2013.
☜مجالس دمشق، محاضرات ألقيت بين عامي 1971-1972 حول دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، منشور أصلا من قبل دار الفكر المعاصر –بيروت- ودار الفكر سوريا، دار الوعي للنّشر والتّوزيع –الجزائر- الطّبعة الأولى 2013.
☜مذكّرات شاهد القرن، ترجمة د/عبد المجيد النّعنعي وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر الجزائر- الطّبعة الثّانية 1984.

☜مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة د/بسام بركة و د/أحمد شعبو، دار الفكر – الجزائر- الطّبعة الأولى 1992 –بإذن من دار الفكر دمشق-
☜مشكلة الثّقافة، ترجمة عبد الصّبور شاهين، دار الفكر -الجزائر– الطّبعة الرّابعة 1984 (بإذن من دار الفكر للطّباعة والتوزيع والنشر بدمشق).
☜ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصّبور شاهين، دار الفكر –الجزائر- الطّبعة الثّالثة 1986.
☜وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصّبور شاهين، دار الفكر للطّباعة والتّوزيع والنّشر –دمشق- سوريا، الطّبعة الخامسة 1985.

ب- <u>باللّغة الفرنسية</u>:

❋Articles de presse, El Borhane, 2014.
❋Les grands thèmes, El Borhane 2005.
❋Idée d'un commonwealth islamique, El Borhane 2014.
❋Le musulman dans le monde de l'économie, traduit de l'arabe par Nour-Eddine Khendoudi, Alem El Afkar, Alger 2005.
❋Le phénomène Coranique.
❋Pour changer l'Algérie (Article de presse), Société d'édition et de communication 1989.
❋la réalité et le devenir, Traduit de l'arabe par : Nour-Eddine Khendoudi, Dar alem el afkar pour l'édition – Algérie- 2004.

2- المراجع:

أ- بالعربية:

☜ابن خلدون عبد الرحمان، المقدّمة، دار الجيل –بيروت- بدون تاريخ.

☜بناسي أحمد، المدخل إلى فكر مالك بن نبي، طبعة بن مرابط –الجزائر- 2014.

☜جيلالي بوبكر، الإصلاح والتّجديد لدى محمّد إقبال ومالك بن نبي ، دار المعرفة – الجزائر- 2010.

☜د/طالبي عمار، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء الأوّل من المجلّد الأوّل، طبعة 2012.

☜د/عويمر مولود، مالك بن نبي رجل الحضارة، دار الأمل للطّباعة والنّشر –الجزائر- 2007.

☜غارودي روجي، كيف صنعنا القرن العشرين، ترجمة ليلى حافظ، دار الشروق –القاهرة- الطّبعة الثانية 2001.

☜كرليل توماس، محمّد المثل الأعلى، تعريب محمّد السباعي، دراسة وتقديم وتعليق د/محمود النّحيري، دار طيبة للطّباعة –الجيزة- الطّبعة الأولى 2008.

☜لالاند، المعجم الفلسفي، ترجمة: خليل أحمد خليل، عويدات للنّشر والطّباعة، -بيروت- لبنان- 1993.

ب- بالفرنسية:

❋ **Garaudy Roger**:

- Biographie de xx siècle, Edition tougui, paris 1987, El-Borhane -Alger- 1992.
- Le message de l'Islam, El-Borhane 2014.
- Promesses de l'Islam, éditions du seuil, Paris XI, 1981

✵ **Ramadan Tariq,** Foi et Raison ; El-Borhane 2014.

الفهرس

♦الفهرس:

❋**مقدّمة** .....ص5.

❋**مدخل** .....ص9.

- **أوّلا**: حياة مالك بن نبي ومسيرته الفكرية.....ص10.

- **ثانيا**: تحديد المفاهيم المفتاحية: .....ص13.

- الدّين-الحضارة-الثقافة-الإيديولوجيا.

❋**الفصل الأوّل**: شروط النّهضة الحضارية وموقع الفكرة الدّينية منها:

أوّلا: - عوامل النّهضة.....ص22.

ثانيا:- الدّورة الحضارية.....ص45.

ثالثا:- دور الفكرة الدّينية في البناء الحضاري.....ص54.

❋**الفصل الثّاني**: مشكلة التّخلّف الحضاري في العالم الإسلامي:

أوّلا: - مفهوم التّخلّف عند مالك بن نبي ومظاهره.....ص58.

ثانيا: - أسباب التّخلف في العالم الإسلامي عند مالك بن نبي وجهود الإصلاح: .....ص65.

-1- أسباب التّخلّف في العالم الإسلامي.

-2- هل فشلت جهود الإصلاح في العالم الإسلامي.

ثالثا: -الإسلام والتّجديد الحضاري: .....ص80.

-1- الإسلام والعلاقات الاجتماعية.

-2- الإسلام والسّياسة.

-3- الإسلام والنّهضة الاقتصادية.

رابعا: - دور المسلم المعاصر في ظلّ تحدّيات العولمة.....ص92.

❋**خاتمة البحث**.....ص96.

❋**قائمة المصادر والمراجع**.....ص100.